توفيق الحكيم

عصا الحكيم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٨٦٧١
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة ت ٩١٩٣٧٧

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

توفيق الحكيم

عصا الحكيم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٨٦٧١

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة ت ٩١٩٣٧٧

﴿ كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية ﴾

١ — محمد ١٩٣٦
٢ — شهرزاد ١٩٣٤
٣ — عودة الروح ١٩٣٣
٤ — أهل الكهف ١٩٣٣
٥ — تحت شمس الفكر ١٩٣٨
٦ — أشعب ١٩٣٨
٧ — عهد الشيطان ١٩٣٨
٨ — براكسا أو مشكلة الحكم ١٩٣٩
٩ — راقصة المعبد ١٩٣٩
١٠ — نشيد الإنشاد ١٩٤٠
١١ — حمار الحكيم ١٩٤٠
١٢ — سلطان الظلام ١٩٤٢
١٣ — من البرج العاجي ١٩٤١
١٤ — تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢
١٥ — تأملات في السياسة ١٩٥٤
١٦ — بجماليون ١٩٤٢
١٧ — الأيدي الناعمة ١٩٥٤
١٨ — لعبة الموت ١٩٥٧
١٩ — حمارى قال لى ١٩٣٨
٢٠ — أشواك السلام ١٩٥٧
٢١ — رحلة إلى الغد ١٩٥٧
٢٢ — رحلة الربيع والخريف ١٩٦٤
٢٣ — يوميات نائب في الأرياف ١٩٣٧
٢٤ — عصفور من الشرق ١٩٣٨
٢٥ — سليمان الحكيم ١٩٤٣
٢٦ — زهرة العمر ١٩٤٣
٢٧ — الرباط المقدس ١٩٤٤
٢٨ — شجرة الحكم ١٩٤٥
٢٩ — الملك أوديب ١٩٤٩
٣٠ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
٣١ — فن الأدب ١٩٥٢
٣٢ — عدالة وفن ١٩٥٣
٣٣ — أرنى الله ١٩٥٣
٣٤ — عصا الحكيم ١٩٥٤
٣٥ — التعادلية ١٩٥٥
٣٦ — إيزيس ١٩٥٥
٣٧ — الصفقة ١٩٥٦
٣٨ — المسرح المنوع (٢٠ مسرحية) ١٩٥٦
٣٩ — السلطان الحائر ١٩٦٠
٤٠ — يا طالع الشجرة ١٩٦٢
٤١ — الطعام لكل فم ١٩٦٣
٤٢ — سجن العمر ١٩٦٤
٤٣ — شمس النهار ١٩٦٥
٤٤ — مصير صرصار ١٩٦٦
٤٥ — الورطة ١٩٦٦
٤٦ — ليلة الزفاف ١٩٦٦
٤٧ — قالبنا المسرحي ١٩٦٧
٤٨ — على الحل ١٩٧٢

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهرزاد: ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل إديسيون لاتين) وترجم إلى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كراون) بنيويورك فى عام ١٩٤٥

عودة الروح: ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار فاسكيل للنشر ، وبالانجليزية ، نشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢

يوميات نائب فى الأرياف: ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى دار (هارفيل) النشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الإسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١

أهل الكهف: ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الايطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦

(٢٧م) كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

الكتاب	البيان
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى . ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
عدالة وفن	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان « مذكرات فنان شاعر » عام ١٩٦١
بجماليون	: ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
الملك أوديب	: » » » » » » »
سليمان الحكيم	: » » » » » » »
شهرزاد	: » » » » » » »
حرفة كيف يموت	: » » » » » » »
المخرج	: » » » » » » »
بيت النمل	: » » » » » » » وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢
الزمار	: ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
براكسا أو مشكلة الحكم	: » » » » » » ١٩٥٤
السياسة والسلام	: » » » » » » »
الشيطان في خطر	: » » » » » » »
رحلة يوم وليلة	» » » » » » » وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣
الشيء المسادس	: ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٣
أريد أن أقتل	: » » » » » » »

(تابع) كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣

دقت الساعة : » » » » » » »

أغنية الموت : » » » » » » »
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٤

فى حرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ٩٦٤

الكنز : » » » » » » »

رحلة إلى الغد : » » » » » » ١٩٦٠

الموت والحب : » » » » » » »

السلطان الحائر : » » » » » » »
وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤

يا طالع الشجرة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ (فى طبع
نشر أكسفورد يونيفرستى برس

[الترجمات الفرنسية من دار نشر « نوفيل إديسيون لاتين » بباريس]

كتبت ونشرت هـــذه الأحاديث

مع العصا فيما بين ١٩٤٦ إلى ١٩٥١

تمهيد

ابنة من الخشب

تلك هى عصاى ... عرفتها أو قل حملتها منذ عام ١٩٣٠ هى بعينها ... لم أحمل سواها قط منذ أن كنت وكيلا للنيابة فى مدينة طنطا ... منذ ذلك التاريخ وهى تلازمنى كأنها جزء من ذراعى ... تنتقل معى وتسير ... من مصير إلى مصير ... لا تضجر منى ، ولا تزهد فى صحبتى ... لو أنها كانت ابنة من لحم ودم ، لقالت لى اليوم : دعنى ... إنى لست من جيلك ! ... والتفتت إلى زوجها وبيتها ! ... ولكن عصاى لم تعصنى ؛ بل تبعتنى وأطاعتنى . وقاسمتنى الأيام البيض والأيام السود ...

إن عصاى معى دائماً ... قانعة بحياتها الهادئة المتواضعة بجوارى ... تسمع كل ما يدور حولى ... وتهز رأسها فى يدى عجبا أو سخرا أو صبرا ... وتكتم كثيراً ... وتهمس قليلا ... ما من شك عندى فى أنها تريد أحياناً أن تتكلم ... ولكنها تصمت أدبا ... لأنى لم أدعها إلى الكلام ... لقد لحظها الكثيرون من قديم ... وأشار إليها أحياناً بعض الكاتبين والراسمين ... وحياها بعض الأصدقاء بقولهم لى :

« أهي دائماً معك لا تفارقك » ؟! ...

نعم : هي بعينها : لا أبتغي بها بديلا ولو كان من الذهب الإبريز ... هذه العصا البسيطة من الخشب الأبيض الزهيد ... لقد هرمت واعتلت... ونخر فيها الداء ... ولكنى أتناولها بالعلاج... والخوف على حياتها يخلع قلبي... حتى كثرت في جسدها المسامير... إنها يجب أن تعيش ... لأنى لا أستطيع أن أتصور يدى بدون يدها . . تلك التي عاشت معي خير سنوات العمر ... !

أظن من حق هذه العصا ومن العرفان لها ببعض الجميل وقد نزلت منى هذه المنزلة ، وبلغت من الدهر هذه السن ، أن أصمت أنا وأقدمها هي... وأدعوها إلى الكلام هنا ... تقول لنا كل مايجيش بصدرها ، من شئون الناس والفكر والمجتمع ...

فى الدنيـا

الخوف من الجوع

قالت العصا :

— يحدث أن ينطلق خيالى أحياناً متسائلا :

« كيف يقضى الناس يومهم الأول فى جنة الخلد ؟ . . . » .

أغلب ظنى أن فقراء الدنيا سيرتمون على المائدة الشهية والفاكهة الجنية ، يأكلون منها أكلا يزعج الحراس من الملائكة ، فيبادرون إليهم منبهين مذكرين :

مهلا ... مهلا ... مخلدون فيها ... أنتم مخلدون ! ... ولكن فقراء الدنيا لا يسمعون ... أو لا يريدون أن يصدقوا ما يقال... فهم يملأون البطون مما لذ وطاب ، كأنما الموائد سترفع عنهم بعد حين ... والفاكهة ستزول بعد قليل ... مثلما كان يقع لهم فى دار الفناء فيما يسمى : « مطاعم الشعب » ! ... وكأنى بحراس الجنة من الملائكة وقد أخذتهم الشفقة بهؤلاء الناس ، أقبلوا عليهم يقصونهم بلطف عن الموائد ، ناصحين :

— رفقاً ببطونكم...إنكم واجدون هاهنا دائماً كل هذا الطعام!.

فترفع الأصوات :

— دائماً ... وإذا جعنا يوما ؟ ...

— أنتم هنا لن تجوعوا أبداً ... أبداً ...

— ومن يضمن لنا ذلك ؟ ... وكانوا كذلك يقولون لنا فى الدنيا ... كان هنالك رجال يقولون لنا : « لن تجوعوا فى ظل مبادئنا ! » ... فتبعناهم فى شطر من الدنيا ، فوجدنا الدولة تجوع من أجل الفرد ... وتبعناهم فى الشطر الآخر فوجدنا الفرد يجوع من أجل الدولة ! ...

— جنة الخلد هى المكان الذى لا يدخله الجوع ...

— سنرى ...

قالها القوم وكل منهم يلتهم تفاحته الرابعة . وكأنه يسر لصاحبه : « تفاحة فى اليد ، ولا عشر فى الغد ! » .

فهمس أحد الحراس من الملائكة لزميله :

— إن الخوف من الجوع لم يمت فيهم بعد ، لعل الجوع هو أول ما يولد على الأرض وآخر ما يموت ! ...

الكرات الثلاث

قالت العصا :

— أتخيل القدر أحيانا فى صورة رجل بارع ،وقف فى ميدان عام يحرك كفه فى الهواء ويلعب بكرات ثلاث كما يفعل الحواة ... وقد اجتمع حوله الناس من مختلف الأعمار والأجناس ... كل قد اشرأب بعنقه ... يشاهد — فاغر الفاه — تلك الكرات تتراقص فى يد الحاوى... وقد كتب على الأولى : « المال » ... وعلى الثانية: « الصحة » ... وعلى الثالثة : « راحة البال » ...

صاح القدر مزهواً فى الناس :

— أما من واحد منكم أيها البشر يستطيع أن يفعل مثل ما أفعل ؟ ...

فتقدم رجل ومد إليه يده قائلا :

— أعطنى الكرات ، وأنا أفعل مثلما تفعل ...

فأعطاه القدر ما طلب... فما كاد الرجل يلعب بها ... وتستقر فى يده كرة « المال» وكرة « الصحة » ... حتى تسقط من يده كرة « راحة البال » ...

فضحك القدر ... وضحك الحاضرون ... فتقدم آخر يتحدى ...
فأعطاه القدر الكرات ... فلعب بها . فإذا كرة « المال » تسقط
من يده وتبقى معه كرة « الصحة » وكرة « راحة البال » ...

فتقدم ثالث ، ورابع ، وخامس . وهكذا دواليك ... ما من
واحد استطاع أن يحتفظ بالكرات الثلاث جميعاً فى عين الوقت ...

فصاح القدر فى الناس :

— كفى ... كفى ... لا تحاولوا بعد الآن ... إنه ليخيل إليكم
أن هذا فى الإمكان ... ولكنه المستحيل ... إن طمعكم وغروركم
يعميانكم عن الحقيقة ...

« لا يمكن ليد إنسان أن تلعب بأكثر من كرتين من هذه
الكرات الثلاث ! ... »

مخلوق محير

قالت لى العصا :

ـ لو سألت الفنان : لماذا ينتج ؟... لما أجاب بجواب واحد فى كل الأحوال ... فهو فى شبابه ، عند ما تسيطر عليه الأحلام وتغذى وجوده الأوهام ، ولا يعرف بعد من الحياة إلا جانبها البراق الخداع ولا يحمل من تكليفها مايبهظ أو يثقل ، ولا يؤمن من حقائق الدنيا بغير الكلمات الكبيرة ، ولا يرى من القيم غير المعانى العظيمة ... فإنه يقول : أنتج من أجل المجد !

فإذا سألته فى كهولته ... وقد تبددت الأحلام . وانقشعت الأوهام . وظهر من الحياة وجهها الحقيق فاتراً ساخراً ، وأقبلت الدنيا تلقى على منكبيه الأثقال والتبعات . وخلعت الكلمات الكبيرة سحرها . وزال عن المعانى العظيمة رنينها . وخيل إليه أن جهده باطل وأن الناس من حوله يجدثون ، وهو الهازل ... فإنه يقول : أنتج من أجل المال ! ...

فإذا أعطيته المجد والمال ـ ذلك المجد الذى لا مطمح بعده لطامح والمال الذى لامطمح بعده لطامع وألفى نفسه مسموع الكلمة

مرهوب الجانب . بإشارة من يده يستطيع أن يقيم الناس ويقعدهم ويغير ما بهم ويصلحهم ... ووجد نفسه فى قصور مرفوعة القباب عامرة بالجوارى والجنات . تحت إمرته أكثر من يخت يجوب به البحار والأنهار ، وأكثر من هوية تشغله ، ولعبة تلهيه - فإنك ترى منه بعد ذلك العجب الأكبر ... إنه ينتج أيضاً ! ...

فإذا سألته لماذا ، ولمن ينتج هذا الفن ؟ ... فإنه يقول : لا بد من أن أخلق ... ولا تسألنى لماذا ، ولا لمن ؟ .

لا توجد إذن غير حقيقة واحدة فى كل ذلك : هى أن الفنان قد خلِق ليَخْلق ... ومهما تكن الأسباب التى ينتحلها أو تنتحل له تبريراً لعمله . فإن السبب الأكبر هو أن قبساً حل فيه من صفة الخالق الأعظم ...

سر الإعجاز !

قلت للعصا :

— عند ما زرت متحف اللوفر فى الصيف ... شاهدت فيه ما كنت أشاهد من ربع قرن: مصورين من مختلف الأسنان والأجناس ، وقفوا بأدوات رسمهم وألوانهم يحاكون آثار الأعلام المعلقة على الجدران . وكان الكثير من الزوار يمرون بهؤلاء المقلدين ويطيلون التأمل فيما يصنعون . ولا يستطيعون كتمان إعجابهم بدقة التقليد . وبراعة المحاكاة . فهذه لوحة « الجيوكندا » المشهورة لـ « دافنشى » . قد نقلها ناقل بابتسامتها الغامضة وألوانها القاتمة ... وتلك صورة «رافاييل» بريشته . وقد قلدها مقلد بكل ما فيها من حذق فى الرسم ونضارة فى اللون . لقد كان الزوار المشاهدون يذهلون لتفوق التقليد على الأصل فى بعض الأحيان ... أو هكذا خيل إليهم ، وكنت أنا من بين أولئك الذين كادوا يخدعون بامتياز المحاكاة ... ولكنى جعلت همى بعدئذ تقصّى الأمر وتحرّى السر ...

ما من شك فى أن المهارة الفنية ليست وقفاً على العباقرة الغابرين ... وما من شك أيضاً فى أن مفاتيح الصناعة قد اكتسبها

الخلف بما انتفع من دروس السلف ، وبما اختزن من تقدم العصور ... فلا عجب فى أن يطاول النقل الأصل فى الصنعة الفنية ... لكن هنالك شيئاً فى الأثر الخالد ، لا يمكن أن يطاوله أو يبلغ إليه ... هو الروح الداخلى ... هو ذلك المعنى الذى يشع من نظرات الـ « جيوكندا » وعينى « رافاييل » .

نعم تلك كانت ملاحظتى الكبرى ...

ما من مقلد واحد استطاع أن ينقل نظرة العين على حقيقتها الأصلية ... ولقد قمت بنفسى بهذه التجربة مرات عديدة ... كان إتقان المحاكاة معجزاً فى كل شىء ... إلا فى نظرات العيون ... عندئذ أدركت أن سر الأثر الخالد ليس فى الصنعة الفنية الخارجية ... ولكنه فيما استقر خلف ذلك من روح لا تنقل ولا تنال ...

الهبوط إلى الشارع

قالت لى العصا :

— لست أدرى : هل تلاحظ هـــذه الظاهرة العجيبة فى مصر اليوم ؟

— أى ظاهرة ؟ ! ...

— كل شخص فى مصر يريد أن يهبط إلى الشارع ... ويتملق رجل الشارع ... الساسة ، والعلماء ، والقضاة ، والأدباء ، والفنانون والمفكرون ... ما من واحد من هؤلاء استطاع - إلا فى النادر - أن يفكر بعقله ، لا بعقل الجماهير ... ولأن فى ذلك لخطراً كل الخطر على أمة لم يتم لها النضج والرقى ... لأن انقراض طائفة الخاصة التى تفكر بعقلها الممتاز ، وتقود الشعب وتبصره وتنهضه وتهديه ... معناه زوال الرأس من جسم الأمة ... هل رأيت جسما يسير بغير رأس ؟ !

فقلت لعصاى :

— أهذه الظاهرة خاصة بمصر وحدها ؟ إنها ظاهرة عامة فى كل بلاد العالم . إنها سمة العصر الذى نعيش فيه ... إن رجل الشارع

فى كل أمة هو الذى يقرر اليوم مصيرها . . .

فقالت :

ــ ربما كان رجل الشارع فى كل أمة متحضرة هو الذى يريد ... ولكنه ليس هو الذى يفكر ، وإنى أتحداك أن تدلنى على أمة راقية ترك فيها العلماء والمفكرون والساسة معاملهم وبحوثهم ومذكراتهم ودراساتهم ، وشغلوا بالتوافه التى تشغل العامة ، واهتموا بالحصول على رضا الناس الرخيص ...

فقلت لها :

ــ حقاً ... ليس لدينا بَعْدُ هذا الطراز من العلماء والساسة والمفكرين الذين يعيشون حياتهم فى معمل أو مبدأ أو فكرة ... ولكن رضَى رجل الشارع هو دائماً المطلب الذى يسعى اليوم إليه قادة الأمم الكبرى .

فقالت العصا :

ــ فكر قليلا ترَ أن رجل الشارع فى الأمم الراقية هو الذى ارتفع ، ولكن القادة فى بلادنا هم الذين انخفضوا ...

أعداؤنا الثلاثة

قالت العصا :

— إن لمصر ثلاثة أعداء ...

قلت :

— أعرف ... الجهل ، والفقر ، والمرض .

قالت :

— لا ... بل الدجل ، والتهريج ، والنفاق ... وإذا كانت مصر اليوم فى هذا المستوى المنخفض من الحضارة ـ ويجب أن تعترف بهذه الحقيقة المرة مرغماً ـ فذلك لا يرجع فقط إلى فعل الجهل والمرض والفقر فيها . . . وطالع التاريخ ينبئك بأن حضارات قد قامت وفى جوفها جهل وفقر ومرض ... وأن أمبراطوريات قد أنشئت وسواد أهلها يعانون من المرض والفقر والجهل . . . ولكنها جميعاً أقيمت وأنشئت لأن أعمدتها ورؤساءها سلمت من جرائم الأعداء الثلاثة الفتاكة : الدجل ، والنفاق ، والتهريج... ولكى أبرز لك خطر هذه العلل الثلاث أقول :

يكفى أن يظهر رجل واحد خلا من هذه العلل حتى يحدث فيها حدثا يغير مصيرها... وإليك النبي العربى... ظهر وحده فى أمة بدائية، تسير فى أمور دينها ودنياها على نهج معوج... فلم يساير، ولم ينافق... بل نهض يرفع الصوت ويجاهر ... وبالحق الذى شعر به يبلغ وينادى... وهو وحده أمام أمة راسخة فى تقاليدها كالطود.. والناس من حوله يعجبون له، ولا يفهمون مراده. ويظنون به الظنون التى تساور كل مجتمع. فحسبوا دافعه حب المال والملك. فقالوا له:

« إن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ... وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ... ».

ولكنه قال:

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ... »

بهذا برز من الصحراء دين حق، ودولة كبرى وصلت المشرق بالمغرب!...

قلت للعصا:

— حقاً ... حقاً ... الدجل، والنفاق، والتهريج ... تلك هى الأعداء الثلاثة التى يجب أن نحاربها أولا قبل أن نرى لمصر مستقبلا.

لماذا فقدنا روح البناء ؟

قالت العصا :

— إنى أتأمل الأهرام ، وما شيدته مصر الفرعونية . وأتأمل المساجد الأثرية . وما شيدته مصر العربية ... وأعجب لهذا البناء الذى يهزم الزمن ... وأريد أن أسألك :

ترى ماذا يمكن أن تبقى للغد مما تشيده اليوم مصر الحديثة؟!...

فقلت : لا شىء ... لأننا لا نبنى شيئاً للبقاء ... لأن فكرة البقاء لا محل لها فى نفوسنا ... والتفكير فى الغد لا يحتل مكاناً من رءوسنا... لأننا اليوم قوم نعيش لليوم والساعة ... عيش الكسالى والخاملين ... أو المتواكلين والعابثين ... ما من شىء ثابت فى حياتنا ... كل بناء لنا يصنع واهياً ... ليستهلك فى حينه ... وكل فكرة متغيرة ... وكل رأى متقلب... وكل برنامج منهار... وكل تحمس لا يعيش غير نهار ...

قالت العصا :

— وما العلة فى ذلك ؟... وكيف فقدت مصر الحديثة روح

الاستقرار ؟ ! ... أهو نظامها السياسى ؟ ! ...

قلت :

— لا أظن النظام السياسى وحده هو المسئول ... إليك انجلترا تتوالى فيها الأحزاب الحاكمة فى أوقات متقاربة ... وإليك فرنسا تتغير فيها الوزارات بسرعة فائقة ... ولكن فكرة البقاء ... فكرة الغد ... فكرة الخلود ... كل ذلك باق راسخ فى ضمير الشعب ... إذا قام هناك بناء عام ، فإن العين تلمح فيه من روعة الفن ومتانة الصناعة ما ينطق بأن البانى إنما يبنى للدوام ... وإذا قام مبدأ عمل أصحابه على تحقيقه ، ودأبوا فى ذلك حتى يصبح حقيقة نابضة ... وإذا وضع برنامج صالح تعاون الجميع على تنفيذه ؛ فلا تهدم حكومة ما أقامته حكومة ... ولا يحطم فرد ما عمله فرد آخر ... إن الشعوب كالأشخاص ... فى طور الطفولة تميل إلى التحطيم ... وفى طور الرجولة تنصرف إلى الإنشاء ...

قالت العصا :

إن الطفولة تحتاج فى تكوينها ونموها إلى نموذج من الرجولة ... ربما كانت علة مصر اليوم هى انعدام هذا النموذج ! ...

جهاز السرعة

قالت العصا :

— العام يمضى وكأنه شهر ... أترى الشمس هى التى تسرع اليوم فى مجراها ... أو أن الأرض هى التى تسرع فى مدارها ؟...

قلت : ما أظن الشمس أو أظن الأرض هى التى تسرع ... ولكن الذى يسرع هو تفكيرنا ورغباتنا ... إن الزمن يبطىء بنا ويسرع على قدر وسائلنا وغاياتنا ... بالأمس : يوم كنا ننتقل من مدينة إلى مدينة على ظهور الدواب ، ونقطع المسافة القصيرة فى الأيام والشهور ، وننتظر الرسائل ترد بعد أسابيع من المكان القريب ... كان كل شىء كذلك يبطىء من حولنا مع بطء الزمن : التفكير ، والرغبة والغاية... اليوم وقد نفخ عفريت العلم فى وسائلنا ، فجعلنا نقطع بالطائرات فى ساعات ما كنا نقطع فى أسابيع ... تحرك كل شىء تبعاً لذلك ، حتى غدت الأيام والأعوام وكأن لها أجنحة هى الأخرى تخطفها من الوجود ... وحتى غدا « الوقت » هو العدو الذى يطارده البشر لاهثين ... وحتى غدت كلمة « السرعة » هى دستور اليوم ، وقانونه ، ودينه ... دينه الذى له رسله وأنبياؤه

من المخترعين الذين يعكفون على تجويد كل آلة ، وتحسين كل جهاز ليصلوا به إلى أقصى مدى من السرعة ... فما نكاد نطالع خبر ظهور طائرة صاروخية تقطع ألفى ميل فى الساعة ، حتى نطالع بعدئذ بقليل خبر طائرة أخرى أسرع من الأولى فى التهام « الوقت » ... هى السرعة فى الوسيلة ، ولدت السرعة فى الرغبة والسرعة فى الوصول إلى الغاية ... فما من واحد اليوم من سكان الأرض المتحضرين يستطيع أن يعيش بلا أحداث تمر به فى كل يوم ... لا بد من انقلابات فى الفكر ، وفى المجتمع ، وفى الاقتصاد ، وفى الحكم... إن الجهاز العصبى للإنسان الحديث قد أصبح هو الآخر مثل الجهاز الكهربائى للطائرة الحديثة مكيفاً للسرعة لا للبطء... وما من شىء يثقل عليه ويخنقه ويشله مثل الهدوء والوتيرة الواحدة ... فهو يشترى الحركة الدائمة ولو بالحروب والدماء . . . لذلك سوف تقوم الحرب فى أوقات متقاربة ولن يكون سلام ما دام جهاز السرعة قد ركب فى روح الإنسان ! ...

الشباب والحياة

قلت للعصا :

ـ ما أعجب الشباب ؟ ... كلما تذكرت أيام التحاقنا بمدرسة الحقوق ضحكت ! ... كانت مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت تابعة لوزارة « الحقانية » ... وكان يقال لنا إنه بالتحاقنا بها قد أصبح لنا الحق رسمياً فى لقب « أفندى » ... ولكن مطامعنا لم تكن لتقف عند هذا الحد ... كان كل واحد منا يعتقد أنه قد أصبح فى البلد شخصية مهمة ... وما كان أحدنا يقبل — وهو فى السنة الأولى — منصباً يوم تخرجه أقل من منصب الوزير ... فلما انتقلنا إلى السنة الثانية قلنا : لا بأس بمنصب النائب العام ... وعندما صرنا فى السنة الثالثة قلنا : نقبل منصب المستشار ... وفى السنة الرابعة تواضعنا وقلنا : إذا عرض علينا منصب القاضى رضينا ! ... فلما اجتزنا الامتحان الأخير . وحصلنا على ليسانس الحقوق ، وخرجنا إلى الحياة ، حفيت أقدامنا سعياً وراء وظيفة معاون نيابة تحت التمرين !.

قالت العصا :

ـ ماذا تسمى هذا ؟ ... أهو الغرور ، أم الجهل بالحياة ؟ .

قلت :

— ما الغرور إلا وجه من وجوه الجهل ... وما أرى الحياة قاسية مفظعة فى قسوتها إلا على الشباب ... لا لشىء إلا لأنه يجهلها ... وهو فى جهله لها يثق بها ... ويعتقد أنه يعرفها ، وأنها فى متناول يده ...

قالت العصا :

— حقاً ... قلما تجد شاباً لا يردد فى كل مناسبة كلمة : « الحياة » ! ...

قلت :

— إن الإنسان لا يكثر من الكلام دائماً إلا عما ليس فى يديه ويتوق إلى الوصول إليه ... ولكن المشكلة هى : كيف نحذر الشباب من مفاجآت الحياة ؟ ...

قالت العصا :

المشكلة الحقيقية هى أنه ما من شاب يعتقد أو يعترف أنه يجهل الحياة ... الحل الوحيد هو أن يكبروا ليعرفوا ...

الاختراعات تخلق الضرورات

قالت العصا :

ـــ ما الذى جرى اليوم فى الدنيا ؟ ... هل أصاب الأرض جدب فلم تنبت زرعا ؟... وهل انتشر فيها طاعون فلم يبق ضرعا ؟... فى كل مكان فى أنحاء العالم صراخ من ارتفاع تكاليف العيش ... والعالم هو العالم ، والأرض هى الأرض ، والزرع هو الزرع ، والضرع هو الضرع ... ولم يزد تعداد سكان الأرض كثيراً ... وما زاد غير العلم الذى تقدم وتفوق ... هذا العلم الذى يأتى كل يوم باختراع ... أما استطاع أن يزيد فى إنتاج الزرع والضرع بما يخفض من تكاليف المعيشة ؟ ... على العكس ... إن تقدم العلم قد صاحبه ارتفاع فى تكاليف الحياة ...

قلت :

ـــ هذا صحيح . لأن مطالب الحياة لم تعد مجرد زرع وضرع ... إن العلم قد غير وجه الحياة العصرية ... وخلق ضرورات جديدة ... ولم يعد المجتمع الحديث بالبساطة التى كان عليها

فيما مضى ... إن العامل الصغير فى مجتمع اليوم لا يكفيه مجرد الطعام واللباس والسكن ليعيش ... إنه يرى من ضرورات حياته أن يدخن ، وأن يذهب إلى السينما ، وأن يشترى الصحف ، وأن يكون فى بيته جهاز راديو ... هذا فى مصر اليوم ... أما فى أوربا وأمريكا فإن هذا العامل له ضرورات معيشية أكثر من ذلك ... وكلما ارتقى العلم كثرت الضرورات ، وكلما كثرت الضرورات كثرت التكاليف ، وبهظت الأثمان ، وطالب العمال بزيادة الأجور ، ووقفت الحكومات فى ذلك موقف المنزعج الحائر ... لأنها بزيادة الأجور تساعد على ارتفاع الأسعار ... وبارتفاع الأسعار تعود المطالبة بزيادة الأجور ... وهلم جرا ...

قالت العصا :

إنها إذن مشكلة تتفاقم ولا حل لها ... لأن تقدم العلم فى إطراد ... وسوف يكون ارتفاع مستوى المعيشة فى إطراد أيضاً .

قلت :

— حقاً ... ما من حل إلا أن يوجد العلم اختراعاً مهمته إصلاح ما يفسده العلم ! ...

هل تقبل أن تولد ؟

قالت العصا :

— لعلك اطلعت على نبذة غريبة نشرت أخيراً فى إحدى الصحف ... مضمونها أن كاتباً فى انجلترا ألقى على جمهوره هذا السؤال :

« هل تقبل أن تولد لو عرفت مصيرك مقدماً ؟ ... »

والعجيب هو أن هذا الجمهور قد أجابت غالبيته بكلمة « نعم » ...

قلت :

— وما وجه العجب فى هذه الإجابة ؟ ... إن هذا هو الرد الطبيعى ...

قالت العصا :

أطبيعى أن يرى إنسان مصيره المظلم ... ويوقن أن حياته ستكون سلسلة من المحن والآلام ، والمصائب والنكبات ، ويعرف أن وجوده على هذه الأرض سيكون حبيس البؤس والذل والمرض

والشقاء ، وأنه لن ينفع بحياته نفسه ولا غيره ، وأن وجوده سيكون كارثة على نفسه وعلى الآخرين ... ثم يقبل بعد كل ذلك أن يولد ... ليواجه مثل هذا المصير . ويحقق مثل هذه اللعنة ؟! ...

قلت :

— نعم ... يقبل أن يولد على الرغم من كل ذلك ... كما ظهر من نتيجة ذلك الاستفتاء ... وهذا يدل على أن العبرة بالحياة ليست غايتها ولا مصيرها ... بل هى الحياة ذاتها ، هى الخروج من العدم على أى وجه من الوجوه ... إن الشيخ الهرم يقعده المرض والصمم ، وتنقطع الصلة بينه وبين من حوله ، ويصبح كتلة من لحم على عظم تتنفس . فيرضى ويبقى متشبثاً بهذا الخيط الواهى من خيوط الوجود ... إنه لا ينفع ولا ينتفع بالدنيا ... ولكن حسبه أنه كائن حى ... وهذا عنده ليس بالشىء القليل ...

قالت العصا :

— أذكر أنك قلتها يوماً فى كتاب « أهل الكهف » : « إن أية حياة منحة ، وأثمن منحة تعطى مخلوقا هى الحياة » .

الفن واسع والعقول ضيقة

قالت العصا :

— ما هى مهمة الفنان؟ ... أهى أن ينقل الناس إلى دنياه... أم هى أن يصور دنيا الناس للناس؟ ...

قلت :

— دعينا الآن من مهمة الفنان... ولننظر فى أمزجة الناس .. فإن فيها العجب ... كانت فرقة الشيخ سلامة حجازى ، تجوب الحضر والريف بروايات « هملت » و « روميو وجوليت » و « تليماك » فتلقى النجاح الساحق... فذهب يوما إلى الريف برواية عصرية تمثل « العمدة » و « شيخ الخفراء » و « المأذون » ... فلم تلق هذه الرواية نجاحا عند أهل الريف .. فقد سمعوا لغتهم ، ورأوا صورهم على المسرح وخرجوا يقولون ساخطين : « أهذه فرجة ؟! ... هذا شيء نسمعه هنا ونراه فى كل يوم ! ... ! » .

قالت العصا :

ولكن هذه الرواية الريفية قد تلقى النجاح الباهر فى العواصم عند المتحضرين ...

قلت :

- لا شك فى ذلك : لأن من أهل المدن من يحب أن يرى صورة أهل الريف ... كما أن العكس صحيح ... وهنالك من الناس من يفضل أن يرى صورته فى المرآة ... ومنهم من يؤثر مشاهدة الصورة الغريبة عليه ..

قالت العصا :

- إن المشكلة إذن هى فى اختلاف أمزجة الناس ! ...

قلت :

- إنها ليست مشكلة ... بل هى شىء طبيعى ... والخطأ الحقيقى هو مطالبة الفنان بمراعاة مزاج واحد من بين هذه الأمزجة ... فى حين أن الفن يجب أن يتسع نطاقه ليشمل كل هذه النزعات فى الإنسان ... فلابد أن يكون هناك الفنان الذى يصور دنيا الناس للناس ليروا أنفسهم فى عمله فيزدادوا معرفة بحقيقتهم ... كما أنه لا بد أن يكون هناك الفنان الذى ينقل الناس إلى دنيا أخرى من صنع خياله ... ليضيفوا إلى حياتهم المألوفة حياة جديدة ... يثرون بضمها ذهنياً ونفسياً ...

قالت العصا :

- نعم ... إن الفن واسع ولكن عقول الناس هى الضيقة ! ...

أجيال الغـــد

قالت العصا :

ـ ألا تلاحظ أن الأجيال الجديدة أصبحت أقل احتمالا للمشقة ، وأضعف صبراً على المجهود ؟... كل ما من شأنه أن يتعب، وكل مايحتاج إلى كد ... وكل مايتطلب الغوص أو الأناة أو الجهد، هو فى نظر هذه الأجيال شىء شاذ ، يجب أن يزول ؟ ...

قلت :

ـ هذا هو الواقع اليوم ... والعلة فى ذلك ظاهرة ... وهى أن هذه الأجيال شبت فى عصر مصاب بحمى السرعة ... معن فى اختراع آلات التبسيط ، متسابق فى استحداث أدوات التيسير ... عصر أراد أن يجعل الآلة تتحمل عن الإنسان كل جهد ... فهو فى مقعد يستطيع أن يطير فى ساعات إلى أنحاء الدنيا ... وفى مقعد فى السينما يستطيع أن يعلم أشـــياء كثيرة فى عشرات من الدقائق ... وفى مقعد يستطيع بالتليفون أن يقضى حاجات فى بلاده وخارج بلاده كان لا بد لقضائها من مشقة الأسفار ... وفى مقعد يستطيع أن يطالع فى مجلة أو صحيفة خلال ساعة واحدة من الأخبار والمعلومات

والثقافات والمسليات ما يصرفه عن إنفاق الساعات الطوال فى الكتب والمطولات ... ثم هو فى مقعد يستطيع أن يسمع ويشاهد فى التليفزيون طرفاً من ثمرات العلوم والآداب والفنون فى زمن قليل وجهد يسير ... وهكذا تتعقب الآلة الإنسان الحديث فتمنعه من بذل أى مجهود ... حتى الحساب ... قيل إن آلة جبارة اخترعت ولها عقل عجيب ، يستطيع أن يقوم عن الإنسان بحل أصعب العمليات الحسابية ... فلا عجب إذن أن نرى الأجيال الناشئة فى مثل هذا العصر قد فقدت القدرة على الصبر الطويل والجهد العنيف ، وكرهت كل ما يجهد الذهن ، وأحبت كل ما يخطف البصر ! ...

قالت العصا :

— الويل لإنسان الغد إذن ! ... إنه سيصبح شيئاً تافهاً ... ما قيمة الإنسان وقد جردته الآلة من مقوماته ، وجعلت منه كائناً رخواً ... هى التى تفكر له ... وتبصر له ، وتسمع له ، وتقرأ له ، وتحسب له ؟ . قل إذن : إن الآلة ستصبح لها خصائص الإنسان ، وإن الإنسان ... ستصبح له روح الآلة ! ...

بعث الحضارة

قالت العصا :

— يبدو أن الحضارة القائمة مقبلة على زوال .. فإن صنع القنبلة الأيدروجينية سيؤدى حتما إلى استعمالها ... كما استعملت من قبل القنبلة الذرية ... فنحن اليوم فى عالم ساسته كالأطفال ... ما إن تقع فى أيديهم علبة كبريت ... حتى يسارعوا إلى إشعال ما فيها ليتقاذفوا به ... فإذا تمت الكارثة وقذفت أمريكا على روسيا القنابل الأيدروجينية ، وقذفت روسيا على أوربا وأمريكا هذه القنابل الهائلة ، فمعنى ذلك تحطيم مراكز الحضارة الغربية ... فلو فرضنا أن مصر سلمت من شر هذا الصراع المبيد ... وخرجت من هذا الفناء الذى ابتلع أوربا وأمريكا دون أن تصاب بسوء... فهل ترى أن فى استطاعتها أن تبعث هذه الحضارة من جديد بوسائلها الحاضرة ؟ ...

قلت :

— من المؤكد أن وسائل مصر الحاضرة قاصرة جداً ، ولا تكفى لبعث حضارة علمية ضخمة ... فنحن نتصور أنفسنا قد تقدمنا كثيراً لأن فى أيدينا آلات ومعامل ومصانع ... ولكننا ننسى أن هذه

الآلات والمعامل والمصانع تأتينا « جاهزة » من الغرب ... فلو تصورنا أن الغرب قد أبادته الحرب ... وأن علينا نحن أن نصنع فى بلادنا الميكروسكوب ، والتلسكوب ، وآلة الطباعة ، وآلة النسيج ، وآلة توليد الكهرباء ... الخ ... وأن نتقن صنع العدسة ، والدينامو ... وأن نبحث ونكتشف ونخلق ... دون أن ننتظر من الخارج عوناً ... وأن نقيم بأيدينا وعقولنا الأدوات التى تمكننا من الكشف والخلق والإنتاج ... فى مثل هذه الحالة يبدو السؤال عسير الجواب ... ولو قلنا إننا نستطيع مع ذلك بعث هذه الحضارة العلمية، لبقى سؤال آخر هو : فى كم من الأعوام نستطيع ذلك ؟ ... أكبر الظن عندئذ أننا نحتاج إلى ما لا يقل ، فى تقديرى ، عن مائتين من الأعوام .

قالت العصا :

— ولكن هذه الحضارة التى ستنتج فى مصر بعد كل هذه الأعوام قد لا تكون هى بالذات الحضارة المندثرة ...

قلت :

— أرجو ذلك ... بل أتمناه من صميم قلبى ... إنى أتمنى لمصر حضارة روحية تقوم إلى جانب الحضارة العلمية ... إنها إن فعلت ذلك تكون ، بكل بساطة ، قد بعثت فى هذا العالم مرة أخرى فى ثوب جديد ، حضارتها الأولى ومجدها القديم ...

« الله » تعويذة الأمريكان

قالت العصا :

— عرفت رأيك فيما لو أبادت الحرب العالمية الثالثة العالم المتحضر ، ووقع على مصر عبء بعث الحضارة العلمية من جديد... لكن ما رأيك فيما لو أبادت القنبلة الايدروجينية أمريكا وأوربا وبقيت روسيا وحدها هى المسيطرة على العالم ... أو عكس ذلك ... أى لو أن روسيا وأوربا هما اللتان أبيدتا وبقيت أمريكا وحدها هى المهيمنة على الدنيا ؟ ! ...

قلت :

— أرى فى كلتا الحالتين كارثة على الحضارة الإنسانية ... بالمعنى الذى أفهمه من هذه الحضارة ... ويفهمه كثيرون من أن حضارة الإنسان يجب أن تقوم على قدمين ودعامتين : « الفكر والإيمان » ... أى العقل والقلب ... أى الدنيا والدين ... أى مد نشاط الإنسان واهتمامه إلى ما هو أدنى وإلى ما هو أعلى ... أى الحياة فى عالمين ... عالم المادة ، وعالم الروح ... أى فهم وظيفة

الإنسان على حقيقتها المثالية : وهى أن الإنسان هو المخلوق الوحيد بين جميع الكائنات الذى نيط به ربط الأرض بالسماء ...

قالت العصا :

— وهل تعتقد أن أمريكا وروسيا تسيران بالحضارة فى طريق آخر غير هذا الطريق ؟ ...

قلت :

— يبدو ذلك ... إن كثيرين من مفكرى أوروبا قد استولى عليهم الخوف من الآن ... وإن إنجلترا التى قبلت مشروع مارشال لأنها فى حاجة إليه ، لترفض بأى ثمن أن « تتأمرك » ... ويقول مفكروها إن النزعة الأمريكية ليست خيراً من النزعة الماركسية . ويقول الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل :

— « إن الله عند الأمريكيين لم يعد فى الوقت الحاضر أكثر من تعويذة يتيمنون بها للنجاح فى الحياة أو لكسب الحروب ! ... »

قالت العصا :

— هنا حقاً الكارثة ... ما من شخص يستطيع أن يجحد الله فى صدره دون أن يجحد الإنسان فيه ! ...

الرجل الثالث

قالت العصا :

— لو تأملت حقيقة الدنيا التى نعيش فيها الآن ... لوجدت أن المسيطر عليها رجلان : رجل السياسة ، ورجل العلم ... أى : رجل تحركه الغريزة الأولى ... ورجل يحركه العقل الآلى ... وقد استطاعت هذه الغريزة أن تركب هذا العقل ، وتجمح به فى سباق مروّع مدمر نحو تحطيم الإنسانية ... كل ذلك يحدث تحت أنظار رجل ثالث ... رجل يحركه القلب ...

قلت :

— تقصدين الأديب ... رجل القلم ... حقاً تلك هى المشكلة التى تحيرنى الآن ... إنى لأسائل نفسى كل يوم ... كلما حملت البرقيات أخبار الاستعداد الرهيب للحرب الثالثة وأسلحتها المهلكة ... ما موقف رجل القلم فى العالم اليوم ؟ ... أهو راض عما يرى ؟... لا ... بكل تأكيد ... ما من أديب واحد يقبل من أعماق قلبه أن تساق البشرية إلى ذلك الهلاك المنتظر ... مهما يكن الثمن ... لأن

شطراً كبيراً من الحضارة الحقة التى استقرت فى النفوس المثقفة من صنع أدبه وقلبه وروحه ...

قالت العصا :

– إذا كان هو لا يرضى ، فلماذا هو يسكت ؟ ...

قلت :

أتراه العجز ؟ ! ... أترى صرير القلم قد أصبح اليوم من الأصوات الهزيلة التى يضيع أثرها بين انفجار المفرقعات ؟ ... أم أن القلب قد مات أو جبن أمام انتصار العقل الآلى ؟ ! ... ذلك القلب الذى كان قديماً تنفجر منه المشاعر والمثل التى قلبت التاريخ ورفعت قيمة الإنسان ... أو أنه تواطأ طامعاً أو مخدوعاً ؟ ! ...

مهما يكن من أمر فإن رجل القلم والقلب مسئول أمام المحنة الحاضرة ... وإذا وقعت الكارثة فمعناها أنه لم يعد له وجود ...

صناعة الآراء

قالت العصا :

ـ ما هي رسالة الأديب والفنان في نظرك؟ ... أليست هي في توجيه الرأى العام؟ ...

قلت :

ـ أعتقد أن أسمى رسالة للأديب والمفكر والفنان ليست في توجيه الرأى العام ، بل في خلق الرأى العام ... فإن التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة ... أى دفع الناس إلى اتجاه بعينه ، وفرض رأى بالذات على عقولهم ، والسيطرة بفكرة أو معنى أو مرمى على نفوسهم ... وفي هذا انتصار بلا شك لفكرة المفكر ، أو لرأى الأديب ، أو مرمى الفنان ... ولكن هذا الانتصار الشخصي هو في ذات الوقت خذلان لآراء عدد كبير من الناس ، وفناء لشخصية طوائف عديدة من البشر ... مثل هذا الانتصار على آراء الناس وقلوبهم مفهوم من رجل السياسة ... لأن وجوده قائم على السيطرة المطلقة على المجموع ... ولكن الأديب أو المفكر أو الفنان

رجل تكوين وتربية وخلق ... لا رجل سيطرة وانتصار . . . فهو لا يجب أن يلبسك رأيه ، بل يجب أن يخلق فيك رأيك .

قالت العصا :

ـ إنك تفترض أن الناس جميعاً قابلون أن يكونوا أحراراً... وتنسى أن أغلب البشر لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأى ... إنما هم يستسهلون أن يرتدوا الآراء التى تصنع لهم صنعا ...

قلت :

ـ نعم ...هنا المشكلة ... وإنها لتتفاقم ...لأنه باتساع نطاق الحضارة أصبح من الضرورى للناس أن يتخذوا لهم آراء كما يتخذون لهم سيارات وأردية وأجهزة للإذاعة . . . وإن الكسل والسرعة والسهولة تدعوهم إلى طلب هذه الآراء مصنوعة عند من يحسن تقديمها إليهم فى صناديق بجهزة مبسطة ...

قالت العصا :

ـ لعلنا اقتربنا من الحقيقة ... وهى أن عمل الأديب أو المفكر أو الفنان هو خلق أولئك الذين يصنعون الآراء للجماهير ! ...

قيمة الأشخاص والأشياء

قالت العصا :

ــ ألست ترى أن الإنسان كلما صعد فى مراقى الفكر بدت له الأحداث والأشخاص هزيلة ضئيلة ؟ ...

قلت :

ــ هذا صحيح ... ولا يصدق هذا على الارتفاع الفكرى وحده ... إنما يصدق ذلك على كل ارتفاع ... فمن يصعد إلى قمة الهرم يبصر الناس كأنها النمل ، والبيوت كأنها الأكواخ ، والسيارات كأنها ألاعيب أطفال ... ولكن السؤال الجدير أن يطرح هو :

ــ هل من يبصر الأشياء والأشخاص من العلو ، يراها على حقيقتها ؟ ...

قالت العصا :

ــ وهل من يبصر الأشياء والأشخاص وهو فى مستواها يراها على حقيقتها ؟

قلت :

— لست أدرى ... وليس من السهل أن نعرف أين نجد حقيقة الأشياء والأشخاص ؟ ... أهى فى تلك الضآلة التى نراها عليها من العلو ؟ ... أم تلك الضخامة التى نراها عليها من السفل ؟... إن أصعب شىء فى الوجود هو صحة الحكم على حقيقة الأشياء والأشخاص ... لأن هذا يتطلب أن تنظر إلى هذه الحقيقة من جملة زوايا ... وأن تكون على جانب كبير من المعرفة والتجربة ... وأن تتأنى فى مراجعة القيم والأقيسة والأبعاد حتى تستطيع بعد كل ذلك أن تصدر حكما يقرب من الصحة ... لذلك طالما سمعنا أن عظماء الرجال والقادة هم الذين يستطيعون أن يصيبوا فى الحكم على الأشياء والأحداث والأشخاص ... إن أعظم ما يحملنى على احترام شخص هو عدم خلطه فى القيم ... وكثيراً ما احترمت أشخاصاً لما يبدو من ثقافتهم ، فما إن يخلطوا فى قيم الأشياء — والأشخاص ، حتى ينهار احترامهم من نفسى ...

قالت العصا :

— صدقت ... إن الشخص ذا القيمة هو الذى يعرف القيم كما يعرف الصائغ درجات الذهب ! ...

المقامر والمرابى

قالت العصا :

ـ لو تأملت الطبائع ، وتتبعت وسائل نشاطها . لتبين لك أحياناً أنها تكاد تنقسم إلى فئتين : فئة تختار للوصول الطريق القصير على ما فيه من خطر ... وفئة تختار الطريق الطويل الذى لا خطر فيه ... فئة تمتطى الحظ ... وفئة تمتطى الصبر ... وحصان الحظ سريع ، ولكنه قد يكبو ... وسلحفاة الصبر بطيئة ، ولكنها لا تكبو أبداً ... وراكب الحظ يريد أن يمحو الزمن الذى بينه وبين الهدف ... وراكب الصبر يريد أن يستخدم الزمن فى الوصول إلى الهدف ...

قلت :

ـ هذا التقسيم لا يصدق على الأفراد وحدهم ... إنما هو يصدق أيضاً على الأمم ... فن الأمم من ادخرت قسطاً من القوة فلم تلقه كله على مائدة الحظ ... وتنزل به ميدان المغامرة ... بل وقفت به تتربص الفرص ، تنفق الضئيل منه ليعود عليها بعد زمن بفوائد كثيرة تجيئها لتضمها إلى رأس المال ، ثم تأخذ منه بعضه القليل ، إذا لاح

صيد أو ظهرت سانحة ، فتعطى بحذر ، وتدع الزمن ينضج الثمر على مهل ... فتحصد وتضيف ، ثم تعاود الكرة ، خطوة خطوة ، وصفقة صفقة ... متخذة من الطمع مركبة ، ومن الصبر والزمن جوادين ... هكذا تكونت الأمبراطورية البريطانية مثلا فى يوم من الأيام ... أما الأمة الألمانية مثلا ، فقد رأت أنها تملك ذات يوم من القوة والكفاءة والنبوغ ما يؤهلها لمركز ممتاز ... وكبر على نفسها أن تستجدى الزمن أو تختلس المغانم من الظروف المواتية ، ومن ضعف الضعفاء ، فآثرت أن تواجه الحظ بكل ما فى يدها ، وأن تنتزع منه مجدها قسراً ...

قالت العصا :

— حقاً ... هذا خير مثل لاختلاف الطبائع والوسائل ... فى ألمانيا طبيعة المقامر ... وفى انجلترا طبيعة المرابى ! ...

الحاصل صفر

قالت العصا :

من أبرز العيوب فى مصر والشرق ، العجز عن الاستمرار ... فقلما ترى شخصاً يستأنف عمل شخص آخر ... فى كل نواحى النشاط ترى الاتجاه الغالب هو أن يبدأ الشخص بهدم عمل سلفه قبل أن يفكر فى مباشرة عمله ... فى السياسة ، والفكر ، والأدب ، والفن ... إلخ ... شعارنا هو :

كل ما تم قبلى لغو يجب أن يزول ! ...

قلت :

— هذا حقاً شعارنا ... بينما شعار غيرنا من الأمم التى أنتجت هو :

كل ما تم قبلى ربح يجب أن يزاد عليه ... ففى السياسة خطوات تتلوها خطوات ، وخطط تدعمها خطط ، والحجر الذى أرسى يقام عليه حجر ، فإذا نحن أمام برنامج اجتماعى ضخم كأنه بنيان ينمو على توالى الأزمان ، على الرغم من اختلاف الحكومات ... وفى الفكر والأدب والفن : المجهودات تضاف إلى المجهودات ...

ويقدر الخلف أعمال السلف ، ويرون فيها ثروة للأمة يجب أن يتولد منها ثروات ... فيظلون يدرسون ما تم بروح الاهتمام ، وينظمون ما حقق وما هو فى سبيل التحقيق ، ويضعون الأفكار فوق الأفكار كمن يضع الدينار فوق الدينار ... فإذا نحن أمام كنز من كنوز القريحة الإنسانية ، تفاخر به أمته وتدل به على أهل الشرق الغارق فى أهوائه ، النائم فى لحظات يهدم آخرها أولها ، وتنسى إحداها الأخرى ...

قالت العصا :

— لعل الفرق بين الشرق وبين غيره من الأمم المتقدمة هو أن هذه الأمم تعرف عمليات الجمع ... فهى تجمع العمل على العمل ، فالحاصل بالطبع عمل ، بينما الشرق لا يعرف غير عمليات الطرح ... فهو يطرح العمل من العمل ، والحاصل بالطبع صفر ! ...

الشرق الشحاذ

قالت العصا :

— لماذا ينظر الغرب دائماً بعدم اكتراث إلى الشرق العربي ويقف منه موقف غير الحافل بأمره ، ويلتفت إليه الالتفاتة العابرة ، ويشير إليه الإشارة الخاطفة ، ولا يراه إلا كائناً جغرافياً ، يقوم على هامش الحضارة الإنسانية ؟ ...

قلت :

— السبب فى ذلك بسيط ، وهو : أن الشرق العربى يقف دائماً من الغرب موقف السائل الذى يمد يده بطلب ... فهو يقول للغرب أعطنى حريتى ... وأعطنى استقلالى ... وأعطنى قروضاً ... وأعطنى علماً ... وأعطنى أفكاراً ... وأعطنى مبادىء ... وأعطنى آلات ... وأعطنى مصنوعات ... وأعطنى خبراء ، وأعطنى وأعطنى .. إلخ... ما من مرة قال الشرق للغرب : « خذ » حتى يسترعى اهتمامه ... إن الإنسان قد جبل بطبعه على أن يهتم بمن يعطيه ، لا بمن يأخذ منه ... وماذا يكون نصيب ذلك الذى يتبعك دائماً فى الطريق يقول لك فى كل حين : « أعطنى من فضلك ... » ؟ ألا يكون نصيبه منك فى أغلب

الأحيان : « الله يحن عليك ! ... » تقولها بغير اكتراث ... وقد يخطر لك أن تستخدمه فى أن يحمل عنك ثقلا ماديا لا شرف فيه، أو أن تستغله فى معاونتك معاونة مهينة مما يقوم به الخدم والعبيد والتابعون ؟! ... فلو أن الشرق قال للغرب ذات مرة : « خذ منى فكرة تنفعك لنظر إليه الغرب فوراً نظرة الاهتمام والاحترام ».

قالت العصا :

— وماذا عند الشرق العربى اليوم مما يستطيع أن يعطيه للغرب ؟! ...

قلت :

— مجرد الاشتراك فى حل مشكلاته يكفى ... ما من مرة قال الشرق للغرب إنى مشغول بحل قضية لك أيها الغرب ، لا لى ... حبذا لو أن « جامعة عربية فكرية » تنشأ لبحث مشاكل الغرب للغرب ... عند ذاك يعترف الغرب أن الشرق ليس مجرد شحاذ ! ...

العصر « الشكوكى »

قالت العصا :

— العالم المتحضر يعيش اليوم فى عصر الذرة ... أى فى عصر يتسم بروح السباق العنيف فى ميدان الاكتشافات العلمية والفنية ، وروح التنافس البالغ فى ميدان الأفكار والمبادىء الاقتصادية والاجتماعية ... أما نحن فإن الناظر إلينا يدهش ويحار ، ولا يدرى أى روح تسيطر الآن على الحياة المصرية ؟ ! ...

قلت :

— إن النظرة الفاحصة إلى حياتنا المصرية اليوم لا يمكن أن تلم إلا بشىء واحد ، هو أن الروح المسيطر علينا الآن هو : روح التهريج ... فنحن قوم نريد أن نضحك ونمزح ونهزل فى كل حين ، ونحن نريد من كل شىء المظهر ، ولا نعبأ بالجوهر ... كل مشروع حيوى ينقلب عندنا إلى احتفالات وإعلانات ولا شىء بعد ذلك ... وكل هدف عندنا هو الوصول الشخصى بطريق الطبل والزمر ، ولا عمل خلف ذلك ... لقد أصبح شعار النجاح فى كل الأفواه : « هرّج تصل » ... حياتنا قد اتسمت بروح التهريج إلى حد نرى فيه

الصفوة من علمائنا فى الطب ، أو الهندسة ، أو الكيمياء ، أو الزراعة ، أو القانون ... إلخ ... والطبقة المثقفة من أساتذة الجامعات وطلابها إذا أرادوا إحياء حفلاتهم السنوية ، لجأوا إلى جماعة المغنين السوقيين والمضحكين المبتذلين والراقصات الماجنات ، ويتهالكون على الإذاعة ، فلا يخطر لسامع أنها لعلماء أفاضل ! ...

قالت العصا :

— حقاً ... العالم يعيش فى عصر الذرة ... ومصر تعيش فى عصر « شكوكو » ... وهو ولا شك رمز لعصر انحلال خلق يمكن أن يفتك بروح أمة وكيانها أسرع مما تفتك بها قنبلة ذرية ! ! ...

الإنسان . . . ذلك الجبان

قالت العصا :

— من طبائع الناس التى تنم على ما ركب فيهم من خسة ؛ ذلك الاحتقار ، الذى ينظرون به إلى الكلب ، وهو لهم الصديق الأمين المحب ...

قلت :

— حقاً إن الكلب للإنسان أكثر من صديق ... وأين هو الصديق الذى يخدمك طول العمر ، دون كلل ولا ملل . . . يرعى غنمك ، ويحرس دارك ، ويتبعك فى الرخاء والشقاء ، ويقودك فى ظلام الليل ، ويجلس عند قدميك يؤنس وحشتك ووحدتك ، ويدافع عنك إذا مسّك سوء أو هددك خطر ، فإذا أشرت إليه بالابتعاد ضيقاً به ، أو للخلو بنفسك وصحبك ، ابتعد صاغراً بأدب ومودة ، ووقف منتظراً على مرمى بصرك أو صيحتك... فإذا بدرت منه هفوة ورأيت تأديبه ، فأفرطت وقسوت . وانهلت عليه ضرباً بالعصا أو ركلا بالقدم ، فإنه يقعد على ذنبه أو يطأطىء

برأسه ، ويتلقى تأديبك بصبر جميل ، وهو القادر أحياناً على أن ينقض عليك بمخلبه ونابه ويفتك بك فى طرفة عين ... ولكنها الصداقة والمودة والحب العميق ... فهما هذا المخلوق العجيب على أكرم وجوهها ... وهو مع ذلك ليس بالنذل ولا بالجبان... فكلنا يعرف مواقفه التى تنطق بالشجاعة والوفاء والإقدام ... فكم من مرة هجم ذئب أو وحش على إنسان أو غنم إنسان ؛ فانبرى كلبه للمهاجم فغلبه أو طرده ، أو مات فى الجهاد ... وكم سمعنا عن قصة ذلك الرجل الذى نهض فى الصباح فوجد كلبه صريعاً تحت فراش طفله ، وبين مخالب الكلب ثعبان ضخم مقطع إرباً ... فأدرك ما وقع فى الليل ... وما دفعه الكلب من ثمن لينقذ الطفل ! ... ولكن العجب هو أن الناس بعد كل ذلك يحتقرون الكلب !

قالت العصا :

— يحتقر الناس الكلب على وفائه وأمانته، لأنه لا يفترسهم !...

مطية الإنسان

قالت العصا :

هل تعتقد أن هناك ما يسمى ثروة النفس حقاً بالمعنى الذى يطلق على ثروة « المـال » ؟ ...

قلت :

أعتقد أكثر من ذلك ... إن « الثروة » هبة من الله ... وهى قد تكون فى النفس ... وقد تكون فى المال ... وفى النادر جداً أن يصطفى الله شخصاً واحداً يمنحه الثروة فى المال والنفس معاً ... ولكن القاعدة الغالبة هى أن نرى فى هذه الدنيا صاحب المـال قد حرم من ثراء النفس ، ومن كانت له ثروة النفس حرم من ثروة المال ... كما أن من الخلائق من حرم الثروة على الإطلاق ... سواء فى المال أو فى النفس ...

قالت العصا :

— أهو قدر مدبر ، أم نظام طبيعى ؟ ...

قلت :

— إنى لا أفرق كثيراً بين النظام والقدر ... لأن تدبير الله

وهو تنظيمه : وما نسميه قدره ، هو فى أكثر الأحيان قانونه...
وفى حالتنا هذه يجرى كل شىء على سنة النظام الطبيعى الذى ركبه الله فى الإنسان ... فالشخص الذى يشتغل بجمع المال ، مع ما فى وسائل جمعه عادة من عناصر تأباها النفس الأبية ، الصافية النقية ، يرى فى هذا المال من غير شك الفضيلة الأولى التى تستحق منه هذا الجهاد والاجتهاد ، وتكريس الحياة ، وشغل البال ... وهو بهذا الاهتمام يجعل « نفسه » من حيث لا يريد ولا يدرى ، مطية لهدفه ... فهو إذن يجعل « المال » فى مكان الراكب ، و « النفس » فى مكان المركوب ... بينما نجد العكس فيمن انشغل عن جمع المال بالفكرة السامية أو العاطفة العالية ... فهو يجعل المال مطية ... ولا يسمح له أن يشغل من حياته أكثر من القدر الضرورى للوجود ، فهو إذن يضع « النفس » فى مكان الراكب ، و « المال » فى مكان الركوب ...

قالت العصا :

— إذا أردت إذن أن تعرف إنساناً فانظر إلى مطيته : هل هى « النفس » أو هو « المال » ! ...

نوع من النبوغ

قالت العصا :

— يخيل إلىّ أن فى مصر خبيراً عبقرياً ، مهمته الدقيقة هى : أن يضع كل شىء فى غير محله ! ...

قلت :

— هذا صحيح ... فإن هذه الإجادة والدقة والإتقان والتفنن فى وضعنا الأشياء فى غير محلها ، قد بلغت حداً لا يمكن أن نعزو فيه الأمر إلى مجرد الفوضى أو المصادفة أو الهوى ... وإنما هى سياسة مرسومة ... أو خطة موضوعة ... أو برنامج مقرر ، أو نظام مدبر لكأن لدينا حقاً رجلا ممتازاً موهوباً ، له سلطة كالسلطة التى كان ينبغى أن تكون لرئيس ديوان المحاسبة ... تعرض عليه الأشخاص ، والمناصب ، والأموال ، والمرافق ... فيسأل : ماهو المطلوب لهذا المنصب ؟ ... فإذا قيل له : مهندس ... قال : ضعوا فيه محامياً ... وإذا قيل له : محام ... قال : ضعوا فيه طبيباً ... فإذا وجد بالمصادفة أن هذا المحامى أو الطبيب على شىء من الدراية والكفاءة ... بحث

وكدّ واجتهد حتى يعثرعلى الشخص الذى لايدرى كثيراً أو قليلا عن الموضع الذى يوضع فيه ... ومثل هذا يتبع فى إنفاق المـال... فإذا قيل له : نريد اعتماداً لإدخال ماء الشرب فى القرى ، قال : لا داعى لشرب الفلاح ، اصنعوا بالمـال داراً فخمة للبريد ... وإذا قيل له : دبر لنا دولارات لشراء أدوية وآلات ، قال : بل اشتروا بها جوارب وسيارات ... الخ ...

قالت العصا :

— أو تظن من السهل دائماً إتقان هذا الفن ؟ ... إن الذهن الذى لا يخطىء فى وضع الشىء فى غير محله ، لا يقل نبوغاً عن الذهن الذى لا يخطىء فى وضع الشىء فى محله ... وكل أمة لها نوع النبوغ الذى تستحقه ! ...

خزان آخر

قالت العصا :

— لست أدرى أأنت من المتفائلين أم من المتشائمين ... ولكن الذى لا شبهة فيه - للنظرة العابرة - هو أن مصر تتقدم سريعاً إلى أسفل ... ويكفى أن تقارن بين ما كان عليه الحال منذ عشرين عاما ، وما وصل إليه الحال اليوم فى كثير من النواحى العلمية ، والخلقية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والفنية ... إلخ ... انظر إلى أساتذة الجامعة فى الماضى وأساتذتها اليوم ... وانظر إلى الأخلاق العامة فى الماضى ، وإلى الأخلاق العامة اليوم ... وانظر إلى حرية الفكر فيما مضى ، وحرية الفكر فى السنين الأخيرة ... وانظر إلى ملاهينا وأغانينا بالأمس ، وملاهينا وأغانينا وحفلاتنا فى الأيام الحاضرة ... أيمكن أن ترى فى كل هذا شيئاً غير سير سريع نحو الانحدار ؟

قلت :

— لا أريد أن أتشاءم أو أتفاءل قبل بحث الأسباب ... إن مصر قد تحولت فى السنوات العشرين الماضية تحولا اقتصاديا ملحوظاً ، كان من نتيجته إثراء طبقة من الناس إثراء سريعاً أدى

إلى نشر مثل عليا جديدة فى المجتمع ... أو على الأصح مثل ليست عليا ... لأنها بذرت فى النفوس بذور المادية والوصولية والاستهتار ...

ولكن هذا الأمر ليس بوقف على مصر وحدها ... كل بلاد العالم حدث فيها مثل ذلك ، يوم تمت فيها هذه التحولات الاقتصادية ... مع هذا الفارق . وهو أن تلك البلاد الأخرى كان فيها مثل عليا حقيقية قوية قبل أن تغزوها المثل الدخيلة غير العليا... فلم يستطع هذا الغزو أن ينال كثيراً من التقاليد العريقة المغروسة فى العلم والخلق والفكر والفن ... أما مصر فلم تكن قد تهيأت بعد لمثل هذا الغزو المادى ...

قالت العصا :

— العلاج الآن هو أن نبادر بإقامة خزان آخر إلى جوار خزان أسوان ... خزان المثل العليا ...

الريحانى الحى ...!

قالت العصا :

— كنتَ تصغى أمس الأول إلى شريط سجل عليه فصل للريحانى ... وكان التأثر بادياً عليك ، لا يستطيع الضحك أن يحجبه ... وكانت شفتاك تهتزان بكلمات ترى ما هى ؟ ...

قلت :

— لعنات كنت أستنزلها فى سرى على من أهمل فى تسجيل أعمال هذا الفنان ... وبركات كنت أدعو بها لمخترع هذا الجهاز العجيب ! ... اختراع يكاد يلغى الموت إلغاء ... فها هو ذا الريحانى يضحك ويضحكنا ، ويبدع ويمتعنا ، وهو فى قبره عظام نخرة ! ... لقد سجل الشريط صوته ، وهو الآن فى الأموات ، وسجل معه أصوات الناس من جمهوره ، وهى تضج بالضحك والإعجاب ، وأكثر هؤلاء الناس اليوم ولاشك أحياء يرزقون ... ولكن السامع يخيل إليه أن هذا الميت أكثر حياة من هؤلاء الأحياء ! ... ولست أعنى بالحياة هنا الحياة المعنوية ... بل أقصد الحياة المادية نفسها ... لقد كان شعورى أن الريحانى حى بكل معنى الحياة ... إنه يذيع

مسرحيته وأنا أسمع اليوم وهو فى القبر كما كان يفعل بالأمس وهو فى مسرح « ريتس » ... لا أكاد أشعر بفرق ، كل الفرق هو بالنسبة إليه هو .... إنه هو الذى لا يستمتع بتصفيقنا أو بإعجابنا ... وإنه مستمر فى منحنا فنه ، ونحن انقطعنا عن توصيل شكرنا إليه ... إنه القادر على التأثير فينا ، ونحن العاجزون عن التأثير فيه ...

قالت العصا :

— لئن كانت الحياة فعلاً وتفاعلا وأثراً وتأثيراً ... فهو بالنسبة إلينا الحى ... ونحن بالنسبة إليه الأموات ! ...

أصدقاء الرخاء

قالت العصا :

— ما الذى ترجوه من الصديق ! ... وما الذى ينبغى له أن يفعل حتى يكون جديراً أن يوصف بالوفى ... أيحسن به أن يقف إلى جانبك فى وقت الشدة ، وأن يختفى عنك وقت الفرج ... أم يخلق به أن يقبل عليك وقت الفرج ، ويختفى عنك وقت الشدة ؟ ! ...

قلت :

— هناك فرق بين ماتتعلمه فى الكتب وماتتعلمه فى الحياة ... أما الكتب فهى تقول لنا ... إن الصديق الحق هو الذى يلازمنا فى الشدة ويؤازرنا فى الضيق ... فإذا جاء الفرج ابتعد عنا حياء وخشية من أن يثقل علينا أو يوحى إلينا بأنه ينتظر على وفائه ثمناً ... أما الحياة فهى تقول العكس ، وترينا الصديق المرموق أنه ذلك الذى يختفى عنك وأنت فى شدتك ... أو يشغل عنك باكتساب المغانم فى صحبة غيرك ... حتى إذا ما ابتسمت لك الدنيا وانقشع غيمك ، ظهر

يجرى نحوك مهللا مكبراً ، ومكث بجوارك الليل والنهار ملازماً مؤازراً ...

قالت العصا :

— ومن الذى له الغلبة ؟ !

— العجيب أن الغلبة لذلك الذى يعرفنا ويلازمنا وقت الرخاء ! ... ولعل هذا هو الطبيعى الذى لاعجب فيه ... فالغلبة دائماً للجرىء ... حتى وإن كانت الجرأة على معنى الصداقة ...

قالت العصا :

— وهل يستطيع الإنسان أن يحترم صديقاً من هذا الطراز ، أو يعتمد عليه ؟ ... ولكن من يدرى ؟ ... لعل الإنسان يحب الصداقة التى تسره أكثر من الصداقة التى يحترمها !

عصير الذهن

قالت العصا :

— هل رأيت هذه المكتبة العامرة بالكتب فى أشهر ميادين القاهرة ، كيف تحولت أخيراً إلى حانوت للمرطبات ؟! ... إن صاحبها هو صاحبها لم يتغير ... ولكنه قلب نفسه بكل بساطة من « كتبى » إلى « شربتلى » ! ... وعندما سئل فى ذلك قال :

— الناس لا يريدون اليوم عصير الذهن ... إنهم يريدون عصير الليمون ! ...

قلت :

— هذا صحيح مع الأسف ... وهى ظاهرة خطيرة تستحق العناية والعلاج ، فإن انصراف الناس عن غذاء العقل نكبة كبرى لأمة فى طريق التحضر ... وما قيمة التعليم فى أمة إذن ، إذا كانت نتيجة تخريج زبائن المشارب لا المكاتب ؟! ... إن أبقى درس وأهم كسب للطالب فى المدرسة ليسا فى تلك المعلومات المحددة ، التى ستنسى حتما بعد حين ، ولكنها فى غرس ملكة المطالعة التى ستلازمه

فى كل حين ... لا خير ولا نفع فى أرقى المدارس والجامعات إذا خرج منها الطلاب يلعنون كتبهم ويختمون بالشمع الأحمر على رءوسهم بينما الطالب الذى ينشأ فيه حب المطالعة والاطلاع ، تنشأ فى عين الوقت جامعة كبرى فى نفسه تزوده بالمعارف المتجددة طوال أيام حياته ... ذلك واجب المدرسة الأول : تعلمنا حب القراءة ... وتمرن عضلاتنا الفكرية على هضم أغذية العقل ... ثم تدفعنا إلى الحياة تزدرد ثمرات الذهن ...

قالت العصا :

— حقاً ... إن الإنسان يولد زبوناً بالفطرة لعصير الليمون ... ولكنه لا بد أن يُعَد إعداداً ليصير زبوناً لعصير الذهن !...

الفن فى البرلمان

قالت العصا :

ـ اعتاد البرلمان المصرى فى كل عام أن يتربص بفريسة هزيلة ضئيلة ... ما إن تتقدم إليه تتعثر فى هزالها وضآلتها ، حتى يعمل فيها طعناً وتقطيعاً ، وشطباً بالأقلام الحمراء ... هذه الفريسة المسكينة هى اعتماد فن التمثيل ! ... فما هى الضغينة المقيمة بين البرلمان وبين الفن ؟ ! ...

قلت :

ـ ما أحسبها ضغينة ... ولكنه احتقار وقلة تقدير لشىء لا يبدو نفعه لكل الأذهان ... العلاج هو أن نعرض الفن وقيمته ونفعه القوى أمام العيون ... ولا أريد فى هذا المقام أن أسوق غير مثال واحد ... مثال لا مبالغة فيه ؛ لأنه الواقع ، وأدعو الناس إلى تحريه ... من أهم دعائم الدعوة العالمية لإسرائيل فرقتان عندها للتمثيل... إحداهما تسمى : «الهابيما» والثانية تسمى : «أوهيل» بذل فيهما من العناية ما ارتفع بهما إلى درجة التفوق الدولى ، فجابتا المدن العظمى فى أوربا وأمريكا ، تعرضان روائع

الفكر الخالد من أعمال : شكسبير ، وراسين ، وستيفان زفايج ... مما جعل صحف تلك البلاد المتحضرة تتحدث بفضلهما على الفكر العالمى والثقافة العالية ... ولهاتين الفرقتين عشاق ومعجبون فى العواصم الكبرى ، مع أن التمثيل فيهما بالعبرية ... ولقد فازتا قبل الحرب بمبالغ طائلة وتبرعات هائلة ، مكنت إسرائيل من تشييد مسرح فى تل أبيب تكلف نحو مائتى ألف من الجنيهات ، يعتبر من أفخم مسارح العالم . .

قالت العصا :

ــ حقاً ... نحن نسخو بآلاف الجنيهات على مقال سخيف تنشره صحيفة أجنبية دعاية مأجورة لنا ... ونضن بهذا المبلغ على إنشاء فن قوى يستطيع أن يقوم لنا بدعاية كريمة أمام السائحين فى الداخل ، وأمام الجاحدين لحضارتنا فى الخارج ! ...

هل المداد هباء ؟

قالت العصا :

— يخيل إلىّ أن الكتابة هى أضعف وسيلة للتأثير فى المجتمع ... وذلك أن من لديه فى الغالب حسن الاستعداد لأن يسمع نجده فى أكثر الأحيان لا يقرأ ... ومن يقرأ فهو قلما يسمع ... ولو كان فى الكتابة نفع . لرأينا المجتمع قد تغير منذ أمد طويل ... ولكن كل قارىء يقرأ وكأن الكلام لا يعنيه ... وإذا فطن فإنه يبتسم — ويطوى الورق ويقول : « كلام ! » ... أو يقول : « تمام » ... ثم ينسى كل شىء بعد حين ... لماذا ولمن تجهدون أنفسكم إذن يا معشر الكتاب فى إهراق هذا المداد الذى لا تبتلعه أرض ولا نفس ؟ ! ! ...

قلت :

— حقاً ... هو جهد لا يرى له أثر ... فالماء يروى الشجر ، وتحصد منه بيدك الثمر ... ولكن المداد ... ماذا ينبت ؟ ... أين هو الثمر الذى نراه بأعيننا قد أينع فى الناس بفعل المداد والقلم ؟ ... إنه لعمل مجحف ميئس ... ومع ذلك يكابده صاحبه ويصر عليه .

وهو موقن أن شيئاً لن يتغير ، وأن نفساً لن تتحول ... على الأقل بالسرعة التي تشعره بلذة النجاح ، ولكنه يمضي في الكتابة وينسى النتيجة ... إلى أن يعتاد العمل دون أن يسأل عن الأثر ... وكأنه ثور الساقية ، يدور بها مغمض العينين ، لا يدرى أذهب ماؤها في الهباء أم ذهب في الغيطان ؟ ! ...

قالت العصا :

— ربما كان هذا هو السبب في قصور القلم في الظاهر وهباء مداده ... إن غيطان النفوس تحتاج إلى أجيال ، حتى تصل إلى أغوارها مياه الأفكار ، ويهيأ أديمها للنبت والإثمار ! ...

قوة الروح

قالت العصا :

— هل تعتقد حقاً أن الروح يمكن أن يكون لها أثر فعلى فى مجتمع ما ... وأن القيم الروحية يمكن أن تكون مصدر سلطة يحسب حسابها فى بلد من البلاد ؟ ...

قلت :

— أومن بذلك كل الإيمان ... على شرط أن تتجلى الروح بنورها وحده ... لا ببريق زينة مادية ... وأن تعتمد القيم الروحية على جوهرها وحده ... لا على مظاهر قوة دنيوية ... إن اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة ... وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جماعة يستمدون هيبة وقوة وجلالا من مجرد قيم معنوية عارية عن المال والجاه ... لهو اليوم الذى يمكن فيه إقناع الناس بوجود الروح ... ذلك أن الناس لا يرون أمامهم غير السعادة واللذة اللتين يأتى بهما الجاه والمال ... فهم إذن معذورون إذا اندفعوا نحو هذا النهر

الأصفر . . يعبون منه ما استطاعوا ، ليرووا ظمأهم الذى لن يروى ... لأنهم يجهلون وجود ذلك الجدول الآخر الصافى الخفى الذى لا بريق فيه ، ولكن فيه أثر الرى ... ما من مثل واحد قام ليثبت للناس أن رجلاً واحداً بغير المال والجاه استطاع أن يكون سعيداً ، وأن يكون قوياً . . خلا الأنبياء والرسل ... وخلا بعض الأفذاذ من الرجال أمثال « غاندى » .

قالت العصا :

— أو ليس فى هؤلاء الدليل ؟ . . كلهم غيروا وجه العالم ... يكفى أن ينهض رجل واحد ... رجل روح حقيقى ليقلب التاريخ ... أو بعد هذا نشك فى قوة الروح ؟! ...

لو حكم الفلاســـفة

قالت العصا :

— كلما حل بالدنيا الخراب ، وفتكت بالانسانية الحروب ، وتوالت المصائب والمآسى ، تساءل الناس :

لماذا لا يقود الفلاسفة زمام العالم ؟ ...

إنهم بتفكيرهم المتسامى عن الغرائز قد يستطيعون تجنيب العالم ويلات العواطف المتأججة التى تلهب النفوس وتدفعها إلى المجازر والنكبات ! ...

قلت :

— ما من شك أن الفلاسفة لو تسلموا أعنة الدنيا لما وقع فيها شىء مما نراه الآن ، بل لما وقع فيها شىء على الاطلاق ... أذكر أن أحد المفكرين تساءل يوماً : ما الذى يجرى لو أن مؤلفى المآسى المشهورة وضعوا بدل أبطالهم فلاسفة ؟... لو أن «شكسبير» وضع بدل «عطيل» فيلسوفا ، لما قتلت «ديدمونة» ولو أن «سوفوكل» وضع بدل «أوديب» فيلسوفا لما فقأ عينيه ... الوحيد من بين أبطال المآسى الذى أريد له قدر من التأمل الفلسفى هو «هاملت» فظل متردداً بين الاقدام والاحجام ، لا يدرى أهو مصيب

أم مخطىء ، حتى كادت تفلت منه كل فرص العمل ... الرواية الكبرى أيضاً ، وهى الحياة ... لو أن أبطالها المحركين لمصائرها كانوا فلاسفة ، لا ساسة ولا قادة جيوش ... لوقفت حركة هذه الرواية من قديم عند الفصـــل الأول ! فالفلاسفة بتحكمهم فى الغرائز ما كانوا ليسمحوا بحروب ، ولا بنزاع ، ولا بثورة ، ولا بانقلاب ... إلخ ... أى أن التاريخ يجب أن يقف عاطلا بلا عمل ، أمام حكمة الفلاسفة التى تمنع تلك النزعات والأخطاء والأهواء التى تنبت منها الحوادث التى تهز الناس وتتيح لهم التغير والتطور ...

قالت العصا :

— حقاً . . . لا بد فى « جهاز » الإنسانية من « محركات » الغريزة إلى جانب « فرامل » الحكمة ...

كرة القدم

قالت العصا :

— أجمع هواة كرة القدم ممن يشاهدون المباريات الدولية التى تجرى بين الفرق المصرية والفرق الأجنبية على ظاهرة بعينها هى أن مصر تملك لاعبين من الطراز الأول ... لو أنك أخذتهم فرداً فرداً لتبين أنهم أمهر وأبرع فى الغالب من زملائهم الأجانب... وكل منهم يأتى بالمدهش المعجب فى حلبات اللعب... ولكن هؤلاء الأفراد الممتازين إذا انتظمتهم المجموعة ، أى ما يسمونه « التيم » ، وواجهوا المجموعة الأخرى الأجنبية فسرعان ما يظهر ضعفها أمام « التيم » الأجنبى ! ...

قلت :

— السبب واضح ، هو أن « التيم » المصرى » كل فرد فيه يلعب مستقلا عن المجموعة . . . وتطغى عليه براعته الخاصة فيتصور أن فى إمكانه أن يقذف الكرة إلى الهدف بقدمه وحدها، ويؤدى ذلك إلى ضياع الرابطة بينه وبين زملائه اللاعبين ، وإلى اختلال النظام الذى يجعل منهم وحدة متسقة . . . فإذا الفريق

حضـكك ... واللعب مرتجل ... والمصادفة هي التي تقرر النجاح أو الفشل . . . في حين أن « التيم » الأجنبي ، كل فرد فيه مكمل لزميله ، لا منفصل عنه ، معاون له وداعم ، لا عائق ولا مزاحم ... يرى الفخر في أن تحصل المجموعة كلها على النصر، دون نظر إلى السبب فيه ...

قالت العصا :

— تلك هي سمات المجتمع الراقي ... بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا ... وإن أبناء هذا المجتمع المتين لتظهر فيهم صفات التعاون والتعاطف ، جدوا أو لعبوا ، فتقودهم إلى الفوز المبين...

لا موت فى أمة حية

قالت العصا :

— من مضحكات مصر الحديثة أن نسمع فيها من يتكلم عن « الخلود » وكل شىء فيها يموت بيد الجهل والاهمال والجحود ...

قلت :

— حقاً ... نحن أمة تعيش من يوم ليوم ... لا ماضى تواصله ولا حاضر تجدُّ فيه ... ولا مستقبل تبنيه ... يظهر فيها أحياناً النبوغ والذكاء والاجتهاد ، كأنها زهرات نبتت فى مستنقع ... تزهر فى الصباح وتذوى مع المساء ، دون أن تجمعها يد فى آنية ... ولنحص ما بقى لنا ، أو ما أبقينا عليه من آثار أمواتنا ... فى العلم ... ألم يكن لدينا عالم أو اثنان تركا بحثاً أو بحثين ؟ ... من الذى قام بعدهما يمضى فيه ، أو يتمه ، أو ينميه ؟ ... فى الفن ... ألم يكن عندنا موسيقى أو اثنين تركا لحناً أو لحنين ؟ ... من هم المغنون الذين رددونهما بعد موتهما ؟ ... المغنى اليوم يلحن لنفسه أغانيه التى ستموت طبعاً بموته ، كما حدث لمن سبقه ... وهلم جرا ...

وفى الأدب ... ألم يكن لنا أديب أو أديبان تركا مؤلفات ذات معان واتجاهات ؟ ... من هم الأدباء أو الأساتذة الذين نهضوا بعد موتهما يفحصون ويشرحون مرامى هذه الأعمال ، وما عكست من تجارب مؤلفيها ، كما يحدث عادة لأى أديب يموت فى بلد متحضر ذى أدب لا يموت ؟ ... ولكننا فى مصر قلما نعمل لأمواتنا النوابغ حفلات تأبين ، ينسون بعدها إلى آخر السنين ... وبعد هذا كله يحلو لنا أن نتكلم عن حضارتنا الحديثة دون أن نفطن إلى أن الحضارة ليست إلا عملية استمرار للجهود والآثار ...

قالت العصا :

— حقاً ... إن الأمة الحية يحيا فيها أمواتها ... والأمة الميتة يموت فيها أحياؤها ...

الثمار الضائعة

قالت العصا :

— يخيل إلىّ أحيانا أن حياة الأفراد والأمم كحياة شجرة فى غابة أفريقية ، ضالة فى المجاهل ... لم تطأها قدم بشر ... فهى تنمو وتثمر ، لمجرد النماء والإثمار ، مدفوعة بحياتها الطبيعية .. ثم تذوى وتموت دون أن يقتطف ثمارها أحد ... وينبت غيرها وينمو ويثمر ، ثم يذوى ويموت ، وهكذا دواليك ... ليس الهدف فى كل هذا هو النفع والانتفاع ... ولكنه عملية النمو والإنتاج والموت ، والاستمرار فى الجيل التالى . . أى أن قوة الحياة وتحقيقها فى هذه العملية المتوالية الدائمة هو المقصود فى ذاته ... أما هدف النفع والانتفاع ففكرة آدمية لا تعرفها « الطبيعة » ...

قلت :

— ما أشقانا لو أن هذا صحيح !.. أيمكن أن نتصور أن حياة الأفراد والأمم لا نفع فيها ولا هدف؟... إنما هى ثمار تنضج وتسقط فى مجاهل كمجاهل أفريقيا السوداء ! .. حقاً ... قد يقول قائل :

« أين ذهبت الحضارة الفرعونية ؟ ... ثم الحضارة الهندية ... ثم الإغريقية والرومانية ؟ ... أليست ثماراً نضجت وسقطت ؟... »

نعم ... ولكنها لم تذهب هباء ... ما من شيء يذهب هباء في هذا الكون ! ... لأن هذا الكون متصل بعضه ببعض كالبنيان ... كل ذرة فيه تشد ذرة ... هنالك لحظات نرى فيها حقاً أن وجودنا ضئيل ... وأن جهودنا تافهة ، وأن آثارنا زائلة ، وأننا نعمل ونخلق وننتج ليبتلع كل هذا غدٌ أسود فاغر فاه ... طالما ابتلع من قبلنا حيوات وثمرات ! .. لكن ، هل معدة هذا الغد المخيف استطاعت يوماً أن تهضم كل ما ابتلع ؟ ! ...

قالت العصا :

— فليهضم الغد كل ما ابتلع من أمسه ... يكفي أن دمه الجديد إنما يجري بثمرات ذلك الأمس المهضوم ! ...

سوق عكاظ هذا العصر

قالت العصا :

— يظهر أن الطريقة التي يتوسل بها الأدب والفن والفكر للوصول إلى الناس قلما تتغير لأن الناس قلما يتغيرون ؛ فشعراء الجاهلية كانوا يعرضون روائع فنهم من « المعلقات » في سوق عكاظ ... حيث الناس يجتمعون لأغراض شتى ... منها التجارة والسياسة ، ومجاذبة الأحاديث ، ومبادلة الأخبار ... في مثل هذا المكان الذي يحتشد فيه الناس سعياً وراء مطالب هي أبعد الأشياء عن الفن والأدب والشعر ، لا يجد الأدباء والشعراء والفنانون وسيلة للدنو من الناس أنجع من أن يعرضوا بضاعتهم الذهنية بين ما يعرضون من بضاعة مادية ... في هذا العصر الحديث لابد أن يكون هنالك شيء يماثل سوق عكاظ ، تجتمع فيه الأذواق والحاجات والمطالب .

قلت :

— سوق عكاظ العصر الحديث هي الصحافة ... فيها نجد أيضاً

السياسة ، والتجارة ، والأحاديث ، والأخبار ... أى كل مايشغل الناس فى حياتهم العادية ... وكل مايحفلون به وما يحتشدون له ... لذلك ترى الفن والشعر أو الفكر ، إذا أراد أن يبلغ رسالته إلى الناس فى جموعهم ، فإنه يلتمسهم فى هذه السوق ... وإن كان مطمعه الأسمى أن تكون له سوقه الخاصة التى لا تعرض فيها غير بضاعته وحدها ... ولكن هذا المطمع قلما يتحقق بنجاح ... لأن الناس هم دائماً الناس ... لا يكثرون إلا فى السوق العامة التى يصفون من يغشاها بقولهم : من لا يشتر يتفرج ! ...

قالت العصا :

— حقاً ... إن الإنسانية لا تتغير : ولكن الذى يتغير فيها هو القوالب والأثواب ...

سر التاريخ

قالت العصا :

ـ أحقاً يستطيع التاريخ أن يعى كل شىء ؟ ... ما أكثر الأشياء التى يصنعها الناس كل يوم وهم يهتفون : « فليذكر التاريخ ! ... » ، وما أكثر الرجال الذين يمضون كل يوم والناس يشيعونهم قائلين : « فى ذمة التاريخ ! ... » إنى أعجب لهذا التاريخ ، وأدهش لقوة ذاكرته ! ...

قلت :

ـ وهل للتاريخ مهمة أخرى ؟ ! ... إن وظيفته الوحيدة هى أن يتذكر ... وإنى أتصوره موظفاً عمومياً جالساً فى مقعده الكبير ، يدخن ويسترجع صور الحوادث والأشخاص ... وهو ـ شأن كل موظف مرهق بالعمل ـ قد عاثت الفوضى فى ملفاته وذكرياته ... فهو قد ينسى أحياناً الشخص الخطير ، أو الذى ظن أهله وأصحابه أنه سيقيم فى رأس التاريخ متربعاً على الوسائد ، ليذكر شخصاً كان فى عشيرته غير ذى حول ولا طول ... إنه

التاريخ له منطقه الذى يختلف أحياناً كثيرة عن منطق الناس ... ولكنه لا يرى ذلك ... فهو يؤكد أنه لا يمتاز بشىء على الفرد العادى ... فهو يشكو كثيراً هو الآخر من ضعف ذاكرته ... ويعترف دائماً بأن ذهنه معرض للخلط ... ويعتقد تماماً أنه فى أحكامه إنما يعبر عن طبائع الناس التى لا تتغير على مدى الأزمان... ؛ بل إنه أحياناً يتواضع أو يتخابث ، ويدعى الصمم ويقول : « لا أستطيع أن أسمع إلا أكثركم ضجيجاً ! »

قالت العصا :

— ومع ذلك فقد ردد كلمات الصامتين ... مامن أحد يعرف سر التاريخ، حتى ولا التاريخ نفسه ... إنه يتذكر كل ما يريد ، وقلما يريد ، وهومضطجع يدخن الأعوام ، دون أن يتكلف التفكير أو التدبير ...

امتياز الذهن

قالت العصا :

— من الواضح أن مصر بدأت تظهر فى الميادين الدولية بمظهر التفوق والامتياز فى الرياضة والألعاب ... فهى الضاربة الرقم القياسى فى العالم كله لعبور المانش ، وحمل الأثقال ، والاسكواش راكيت ... إلخ ... ولكنها فى ميادين العلم والفن لم تزل ضعيفة الأثر ... أو فى حكم المتأخرة المتخلفة ... فما هو السبب ؟ ...

قلت :

السبب هو أن الممتاز فى الرياضة أو اللعب لا يمثل إلا نفسه ... يكفى أن تأتى بشخص حسن الاستعداد ، قوى البنية وتحبسه وتدربه وتمرنه ... وتلقى به فى الميدان ، فإذا صادفه الحظ المواتى مع مرانه ومهارته وقوته فإنه يفوز على الآخرين ... لأن جسم الإنسان واحد فى مصر وغير مصر من أمم الأرض ... ولكن الثقافة والعلم والفن شأنها شأن آخر ... فالممتاز فيها لا يمثل نفسه أو جسمه فقط ، بل هو يمثل القيمة العلمية أو الفنية للأمة كلها ... فهو خلاصة التاريخ الثقافى لبلده الذى قد تمتد جذوره إلى مئات السنين ... وليس من

السهل تدريب عالم أو فنان بالسرعة أو البساطة التى يدرب بها لاعب أو رياضى ... لأن وراء العالم والفنان تراثاً ثقيلا من التحولات والتطورات العلمية أو الفنية التى مرت بها حياة العلم والفن فى أمته .. فإذا اخترع أو أنتج عالم أو فنان اختراعا ، أو إنتاجا عالميا ممتازا ، فليس معنى هذا أنه هو الممتاز فى علمه أو فنه فقط ، بل معنى هذا أن العلم أو الفن كله فى بلده قد نضج إلى الحد الذى يسمح بظهوره فى المجال الدولى ...

قالت العصا :

— حقاً ... وهذا هو الذى يجعل الأمم ذات التاريخ العظيم فى العلم والفن ، هى وحدها التى تخرج حتى الآن العلماء والفنانين العظام ! ...

المعلم والحاوى

قالت العصا :

هنالك ظاهرة تسترعى التأمل والتعجب :

سر فى أى حى شئت ... وجس خلال أى ريف أردت ... وابحث فى سجلات أى مصرف عرفت ... فلن تجد عمارة أو عزبة أو ثروة يمتلكها رجل علَّم الناس ، أو أضاء فكرهم ، أو ارتفع بإدراكهم ... ولكنك ستجد العمارة والعزبة والثروة لمن استغفل الناس واستعبدهم ، واستغلهم وأضحكهم ، وهرج لهم وطبل ورقص ، ودجل وتملق الغرائز وهبط بالمدارك ...

قلت :

— وما العجب فى ذلك ؟ ... فلنسر فى أى حىٍّ شئنا ولنراقب أى جماعة من الصبيان معهم قروش أو ملاليم ... ولننظر إلى من يعطونها ؟ ... ألِلى الحاوى والأراجوز والقراد وبائع حب العزيز ؟ ... أم إلى فقيه الكُتّاب ومعلم المدرسة ؟ !

هكذا الشعوب أيضاً ، خصوصاً فى مراحلها الأولى : تعطى كل

ما فى يدها لمن يتملق غرائزها الأوليـــة ، ويرضى أذواقها البدائية ... ويسير على هوى عقلها الفارغ ، ولا يجهد فكرها التافه ... فإذا شبت وارتقت ، كان شأنها شأن الصبى الذى كبر واتسعت مداركه ... فهو لا ينسى أن يحتفظ بقسط من قروشه للكتاب الجيد ، والهدف النافع ... لذلك كلما ارتقت الشعوب زاد تقديرها للذهن المضىء والعمل الرفيع ...

قالت العصا :

— حقاً ... لا يستطيع المعلم أن ينافس الأراجوز فى الحصول على قروش الطفل ... ولكن هناك ولىّ أمره الذى يضمن حق المعلم ... أما الشعوب البدائية فمن يحتفظ فيها بحقوق المهذبين وأقدار الموجهين ؟ ! ! .

مصنع الشر

قالت العصا :

— هل الشر يولد فى الإنسان ... أو أن طبيعة الإنسان مفطورة على الخير ، وأن المجتمع هو الذى يغير هذه الطبيعة ويوجه هذه الفطرة ؟ ...

قلت :

— أكثر اعتقادى أن الإنسان فطر على الخير ... وأن المجتمع له أقوى الأثر فى تحويل هذه الفطرة ... وأضرب لذلك مثلا صغيراً له دلالة كبيرة ... روى لى طفل هذه الحادثة : أنه بينما كان يلعب على شاطىء البحر عثر بمنديل فيه عشرة قروش ... فأوحت إليه فطرته السليمة ، وتربيته القويمة ، أن يمضى إلى رجل البوليس المنوط به حراسة الشاطىء فيسلم إليه ما وجد ... وتناول رجل البوليس المنديل والنقود من الطفل ... وبدلا من أن يشكره على أمانته ، أو يهش فى وجهه مشجعاً ، تجهم له وحدجه بنظرة الارتياب واتهام ، وصاح فيه :

— « ألم يكن فى المنديل أكثر من هذا المبلغ ياولد ؟ ... »

فأجاب الطفل خجلا مصدوماً مجروحاً فى عزته :

— « لا » .

ثم مضى... وإذا به يقابل طفلاً آخر يبكى باحثاً عن المنديل الضائع ، فأخبره أنه وجده وسلمه إلى رجل البوليس ، ومضى به إليه ، فما إن رأى رجل البوليس الطفل الباكى المطالب ، حتى نظر إلى الطفل الأول نظرة سخط وغيظ ، وانتهره بقوله :

— سرعان ما أخبرته أيها الكلب ! » .

مثل هذه القصة ترينا الطريق الذى قد يتجه إليه الطفل الأمين فى مستقبل حياته ... إنه سيؤمن بأن الأمانة خرافة ، وأن الحكومة خصم لاممين ...

لت العصا :

مثل هذا المجتمع حقاً هو الذى يصنع بيده — من العجينة النقية — اللصوص والخونة والمجرمين ! ...

ثمن الدم

قالت العصا :

— يظهر أن هنالك علاقة وثيقة بين الحضارة والجيش ، أى بين الحضارة والدفاع عنها ... فقد سمعنا « تشرشل » يخطب كثيراً فى الحرب الماضية يستحث جيش بلاده قائلا : « إننا ندافع عن حضارتنا » ... ومثل هذا كان يقوله قادة الجيش الفرنسى ... وما من شك فى أن هذا كان يقال أيضاً للجيش الألمانى الذى يعتقد دائماً أن ألمانيا فوق الجميع .

قلت :

— هذا صحيح .. إن استبسال الجنود رهين بقيمة ما يدافعون عنه ... إن دماء الأحرار غالية ، وعند ما تنهض أمة ذات حضارة لتدفع بأبنائها إلى حيث يبذلون دماءهم ؛ فلا بد أن تشعرهم بأن الهدف يستحق الثمن ... وهل هناك هدف أسمى من المحافظة على حضارة بلدهم المهددة ... هذه الحضارة التى بذل فيها مواطنوهم المهج والأرواح والعقول فى سبيل إنشائها ، مجداً حياً قائماً يفاخر به

المنتسب إليه ! ... إن الجندى الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو الروسى أو الأمريكى ، يذهب إلى الميدان وهو مطمئن إلى أن دمه يبذل ويسفك دفاعاً عن بناء أمته الذى يعلم كم من العظماء شيدوه ، وضحوا فى سبيل تشييده ، وكم من مواطنيه يقاسون الشظف والحرمان خلف الخطوط ليشدوا أزره فى الميدان ويعاونوه ... ولكن الجندى المصرى مثلا يذهب إلى الميدان ليسفك دمه دفاعاً عمن ؟ عن طائفة من اللصوص والسماسرة والمرتشين الرابضين يجمعون المال من دمه خلف الخطوط ؟ ... أم دفاعاً عن حضارة تسير فى بلده سير السلحفاة ؟ ... لأنه ما من أحد يفكر فى أمته بقدر ما يفكر فى شخصه ! ...

قالت العصا :

— ومع ذلك رأينا الجندى المصرى يستبسل ويبذل دمه عن طيب خاطر ، لأنه كريم العنصر ، ولكن الويل كل الويل إذا مضينا ندفع به إلى الموت بغير هدف عظيم ، وظهر سليم ؟! ...

فرحة الجديد

قالت العصا :

— الطفل يفرح بالجديد لأنه جديد ... ويهزه إليه الانفعال الوقتى بلمعة الجدة ، وبهزة المفاجأة ... جرب أن تعطى طفلا لعبة جديدة ولا تدعها فى يده لحظة حتى تبادره بلعبة أخرى جديدة ، عندئذ تجده قد ألقى من يده الأولى قبل أن يعرف مابها أو يدرك كنهها ، ليقبل على الثانية فإذا فاجأته بلعبه ثالثة رمى الثانية والتفت إلى الأخيرة ... وهلم جرا ...

قلت :

هكذا الشعوب أيضاً فى طفولتها ... والمجتمع فى طفولته ... يفرح بالحدث الجديد، والخبر الجديد، والصحيفة الجديدة، والحكومة الجديدة ، وكل شىء جديد ... انتفع به أو لم ينتفع ... المهم عنده هو التغيير ... هو أن ينفعل وتثار عاطفته بالمفاجأة من أى نوع كانت ... وخطورة هذه العادة فى مجتمع ما ، هى أنها تجعله سريع التقلب ، سطحى النظرة ، قليل الصبر ، عاجزاً عن إرساء قواعد

متينة لحياته ومقومات نضجه ... فهو يغير ويبدل فى الأشياء قبل أن يفهمها أو يفحصها أو يمحصها ... وهو بهذا الخلق الطفولى قد يؤثر فى قادته ومفكريه ، فيرغمهم على إرضاء نزعاته ونزواته ... فيقضى بذلك على كل أمل فى إمكان تطوره إلى مرحلة الإدراك الصحيح ...

قالت العصا :

— ليس الذنب ذنب الطفل ، وألاعيب الطفولة ... ولكن الذنب ذنب المربى الذى يشجع فى الطفل هذه النزعة بالإكثار من تقديم الجديد ، فيعوق نموه من عهد اللعب والعبث إلى عهد الفهم والبحث ...

الدواء العجيب ...!

قالت العصا :

— فى الدهر ساعة يرفرف فيها السلام ... وتكتمل الصحة ... ويصفو المزاج ... لو عرفنا اسمها أو صفتها ، لحصل لنا من ذلك نفع كثير ...

قلت :

— أما الإسم والوصف ، فليسا من الصعوبة بمكان ... هذه الساعة من الدهر التى يرفرف فيها السلام على الأرض تسمى فى عرف رجال السياسة «توازن القوى» ... فكلما حدث هذا التوازن فى القوى بين الدول ظفرت الدنيا بفترة من الاستقرار والهدوء والسلام ... فإذا اختل الميزان قليلا ، ورجحت منه كفة ، ثقلت بالقوة والمنعة والعدد والعلم والاختراع والحضارة ، فسرعان ما تبرق عيون الأطماع ، وترعد أصوات الطغيان ، ويكفهر الجو بغيوم الحروب التى لا تلبث أن تنقض على الأرض ... وهذه الساعة من الدهر التى تكتمل فيها الصحة ويصفو المزاج تسمى فى عرف الأطباء : توازن القوى أيضاً ... فكلما تم هذا التوازن بين ما فى

الجسم من عناصر وجراثيم ، استمتع الإنسان بفترة من الصحة ، فإذا اختل هذا التوازن بتغلب عنصر من العناصر على غيره ، أو ازدادت كميته عما ينبغى ، أو قلت عما ينبغى ، أو تكاثرت الجراثيم ، أو ندرت ، فسرعان ما تذهب الصحة ويأتى المرض ... فتوازن القوى فى جسم الإنسان ... أو جسم الدولة ... أو فى جسم الدنيا المكون من دول ، هو سر الصحة والسلام ... وليست الصعوبة فى معرفة ذلك السر ، فهو معروف ... ولكن الصعوبة الكبرى فى كيفية الاحتفاظ بهذا التوازن طويلا !... أما فى جسم الانسان فطريقة الاحتفاظ بالتوازن ربما كانت فى « الاعتدال » ... وأما فى الجسم الدولى ، فربما كانت فى « اعتدال » الساسة أيضا ... ولكن هذا الدواء المسمى « الاعتدال » أين يصنع أو يطلب ؟...

قالت العصا :

— الاعتدال ... ما من صيدلية آدمية تستطيع أن تصنع هذا الدواء العجيب فى كل الأحوال ! ...

دورة الزمان

قالت العصا :

— كلما تذكرنا الحضارات القديمة التى ازدهرت فى مصر واليونان والهند منذ آلاف السنين ، وما خلفته اليوم فى هذه البلاد بالذات من شعوب فقيرة تستجدى غيرها ثمرات الحضارة ، تملكنا العجب ولم ندر لهذا المصير المؤلم من سبب ؟ ...

قلت :

السبب واضح ... حسبنا أن ننظر إلى ثروة رجل قضى عمره يكنز المال ، حتى قنطر منه مايضاهى التلال ... هذه الثروة منذ وجدت ، وناموس الوجود يرتب لها طريقة فنائها ... إن التلال تختفى بالتضاريس الأرضية والزلازل الفجائية ، وأموال البخيل تختفى بإسراف خلفه السفيه ، والثمرة الناضجة إن لم تجد من يقتطفها تنخر فيها الدودة التى تسقطها ، والصحة عند ماتبلغ أوجها تولد من توجها العلة ... والحضارة عندما تتألق أشعتها تبدأ فى التحلل ، ولا يبقى منها بعد تمام التحلل سوى كيان منطفىء ، لا يلبث أن يتحول إلى رماد من شعوب مفككة رخوة شاحبة ، ويدور الزمان

حورته فينفخ قليلاً فى هذا الرماد فإذا جذوة مختفية كحبة الخردل تدب فيها الروح، وتأخذ فى التألق شيئاً فشيئاً حتى تصبح مرة أخرى حضارة حية ذات أشعة وهكذا دواليك ...

قالت العصا :

ــ ولكن العجيب فى الحضارات أنها لا تختفى، بل تنتقل .. إن حضارة مصر والهند واليونان قد ورثها غير أهلها، وانتقلت من مهدها إلى أوربا مرتدية ثياباً جديدة ! ...

قلت :

ــ ومن قال إن ثروة الغنى تختفى؟ ... إنها تتبدد وتنتقل إلى أيد كثيرة مختلفة ... وقد تعود يوما مرة أخرى إلى أحد من أعقابه وسلالته بجهد آخر وكد جديد ! ...

قالت العصا :

ــ حقاً ... ما من أحد يملك شيئاً على هذه الأرض إلا إلى أجل معلوم ! ...

مقبرة النجاح

قالت العصا :

— مقبرة النجاح الغرور ... هذا لا شك فيه ... ولنا على ذلك أدلة وشواهد من التاريخ والواقع ... وليس هنا موضع النظر ... إنما المحير هو كيف ينزلق إلى هذه المقبرة رجل في اكتمال عقله وقوته ، أو دولة في اكتمال قوتها وحنكتها ؟ ! ...

قلت :

— إن الغرور بالنسبة إلى العظيم في الأفراد والدول ، ليس في كل الأحوال مسألة خلقية ؛ بل هو أقرب إلى أن يكون مسألة حسابية ... الخطأ فيها يؤدى بالنجاح إلى المقبرة ، مشيعاً صاحبه بهذا الوصف ! ... فعندما يقول بعضهم : إن « هتلر » مثلا أصابه الغرور ؛ فأقدم على منازلة الدول الكبرى مجتمعة بجيشه وحده ، لا يقصد بذلك مطلقاً أن مثل « هتلر » في مثل أمته المملوءة بالخبراء المحنكين ، والدهاة الأساطين ، يمكن أن يلعب برأسه نوع الغرور الذى نطلقه على السخفاء والمتهورين ... لا ...

وإنما الغرور هنا هو حساب مبنى على تقدير غير دقيق لقوة النفس منسوبة إلى قوة الغير ، وقد تكون ظروف مفاجئة هى التى أخلت بهذا التقدير ، ولكن هذا لا يؤثر فى الوصف ؛ لأن الوصف إنما يلحق بالنتيجة لا بالفعل ... كما أن وصف الميت لا يلحق إلا بمن دخل المقبرة بالفعل ... ذلك أن التقدير الذى يؤدى إلى النجاح ، ولو بالمصادفة الحسنة ، قد يوصف صاحبه بالجرأة ، ولكنه لن يوصف بالغرور ... إن الحساب فيه إنه اغتر ...

قالت العصا :

— حقاً ... ما لحقت هذه الكلمة قط رجلا وصل ! ... إنما الغرور هو الكفن الذى تغلف به قفزة الجرىء إذا سقط ! ...

منشآت العمال

قالت العصا :

— هل ارتفاع الأجور يكفي وحده لرفع مستوى المعيشة بين طبقة العمال ؟ ...

قلت :

لا أظن ... والدليل أن أجر العامل اليوم قد ارتفع في مصر عما كان عليه من قبل ، ولكن مستوى معيشته لم يرتفع بهذه النسبة ، لأن عدداً كبيراً من العمال لا ينفق أجره فيما يرفع مستواه الاجتماعي ، ولكن فيما يرضي نزواته العارضة ... روى لي أحدهم أنه شاهد في أحد المقاهي عاملا ينفق في جلسة واحدة ما يقرب من نصف الجنيه بين شراب ودخان ... فلما استعلم عن أمره من خادم المقهى أخبره أن هذا متوسط ما ينفقه هذا العامل في هذا المحل كل يوم ، ثم علق على ذلك قائلا : ولعله لا يطعم أسرته بأكثر من عشرة قروش ! ... » وهذا في الغالب هو الحاصل ... لم تزل أسرة العامل وسكنها وطعامها على الحال القديم ، بينما زيادة

الأجر تذهب فى الملاهى والمكيفات ... ومهما يرتفع الأجر ، فلن يغير ذلك شيئاً من الأمر ... والعدد القليل من العمال الذى ينفق قرشه فيما ينبغى أن ينفق فيه ، لا يمكن أن يظهر أثره بين الغالبية الساحقة ... والحل لهذه المشكلة هو أن تنشأ مصلحة أو وزارة باسم « منشآت العمال » تقوم باستقطاع جزء من أجر كل عامل ... وتجعل حصيلته فى صندوق خاص تغذيه الحكومة وأصحاب العمل بمبلغ كاف ، ويوجه هذا المال إلى إنشاء المشروعات التى ترفع مستوى العمال مباشرة ، كبناء المساكن الصحية ، والحوانيت التعاونية والأحياء والنوادى العمالية ... إلخ ...

قالت العصا :

— حقاً ... هذا ما يجب أن يحدث ، فإننا إذا أعطينا طفلاً مبلغاً كبيراً من المال ، فإن أول ما يصنعه هو أن يشترى به كمية كبيرة من الحلوى ، وآخر ما يفكر فيه هو شراء ثوب نافع ... فلا بد من تدخلنا لنوجهه إلى الطريق المستقيم ... ونقول له : هذا فقط للحلوى والباقى لمطالبك الضرورية النافعة التى تجعل منك مواطناً محترماً ...

أحلام العظماء

قالت العصا :

— هذا الهرم الأكبر ... الشامخ الثابت فى الرمال ، تمر به القرون والحقب والأجيال كما تمر النسمات ، يقول للزمن : « نحن صنوان » ... ويقول له الزمن متملقا : « بل أنت لى رداء منظور من حجر » ! ... قبل أن يقام فى الحقيقة على صورته هذه ، ألم يقم فى رأس رجل ؟ ! ...

قلت :

— ما من شك فى أنه قام فى رأس رجل ، حلماً من الأحلام ، قبل أن يصير حقيقة من الحقائق ... فليكن هذا الرجل ملكا ، أو فنانا ، أو مهندسا ، فإنه قد تخيل فخلق ، وخلق ففرض خليقته على الزمان ! ... ساعة حلم فى رأس رجل قد تصبح هى الأبد ! ... يا لعجائب العبقرية أحياناً ! ... هذا الوهم الشفاف الذى لا جسم له ، هذا الحلم الهفهاف الذى لا كيان له ... هذا الخيال العابر الذى يأنف المكان أن يجد له موضعاً ، ويترفع الزمان عن أن يبقى له فى حسابه لحظة ، يستطيع أن ينقلب جبلا شاهقاً راسخ الموضع

دائم اللحظات، ومثل هـــذا كثير فى عالم الروائع الباقية والأفكار الخالدة ... رجل يتوهم أو يتخيل أو يحلم، ثم يستيقظ فى الصباح مؤمناً بوهمه أو خياله، أو حلمه، فيأبى إلا أن يقيمه على قدمين، فما يكاد يفعل حتى ينطلق هذا الوهم أو الحلم يسعى بين الناس حقيقة، يعيش فيها الناس ويألفونها، كما يألفون الظواهر الطبيعية، من جبال وبحيرات وبحار ومحيطات ... وتتشرب نفوسهم بها، فإذا هى عندهم شىء طبيعى كالماء والهواء، يتعذر عليهم الحرمان من وجودها ويصعب عليهم تصور وجودهم بدونها، ويخيل إليهم أنها من المقومات الضرورية لحياتهم، ولا يحبون أبداً أن يتذكروا أنها حلم مرّ ذات ليلة برأس رجل، كغيره من آلاف الأحلام التى تمر دائماً برءوس الآلاف من الرجال ...

قالت العصا :

— نعم ... إلا رأس الرجل العظيم ... الرجل العظيم، ذلك الذى يجعل من أحلامه حقائق تعيشها الناس! ...

مهر الفن

قالت العصا :

ـــ ما حقيقة العلاقة بين المال والفن ... وبماذا تفسر تصرف فنان عظيم مثل « بيتهوفن » معروف بالخلق الكريم هذا التصرف الغريب إزاء تعهداته ، فقد قيل إنه اتفق مع دار للنشر الموسيقى على تأليف « السيمفونية التاسعة » لقاء مبلغ من المال ، فلما مضى فى تأليفها ورأى اتساع نطاقها استصغر المبلغ المتفق عليه ، وتعاقد مع دار أخرى بمبلغ أكبر ضارباً بعقده الأول عرض الحائط ... ثم بماذا تفسر تصرف شاعر عظيم مثل « المتنبى » الذى انتقل من مدح « سيف الدولة » إلى مدح « كافور » تبعاً لما طمع فيه من جائزة ؟ ! ... أكان المال هو الهدف الأول عند هذين الفنانين العظيمين ؟ ! ...

قلت :

ـــ لا أعتقد مطلقاً أن المال كان هدفهما الأول ... ولا يمكن أن أعتقد لحظة أن المال وحده يمكن أن يكون الهدف الأول لفنان حق ... إن « الكرامة الفنية » هى سر تصرف « بيتهوفن »

والمتنبي ... احترام الفنان لعمله هو الذى جعل « بيتهوفن » يقدر جهده أعلى تقدير ، وجعل المتنبي يرى شعره وفنه خليقين بأسمى جوائز الملوك ... كرامة الفن فى نظر الفنان تدفعه إلى أن يصر على طلب أبهظ الأجور . إنه نوع من الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالفن ... لا دخل له بحب المال فى ذاته ... أما الفنان الذى يسعى إلى المال فى ذاته ... فإنه يسلك طريقاً آخر ... هو الطريق المعروف لجمع المال ... وهو البحث عما يرضى غرائز الجماهير ... ووضع عمله فى قالب المشروع التجارى ... واستغلاله للجهود الأخرى فى صيغة من الصيغ المألوفة عند الشركات وأرباب الأعمال ...

قالت العصا :

— نعم ... فرق بين من يجعل فنه كالعروس يطلب لها المهر الغالى ، وبين من يجعل عمله كالعاهر تأتى له بالمال من أى طريق ! ...

استقلال الشخصية

قالت العصا :

— من المشكلات التى تصادف الآباء والمربين فى عصرنا الحاضر مشكلة تكوين « الشخصية » فى النشء ... فقد انتشرت بعض الآراء التى تقول بترك الصغار يفعلون ما يشاءون ، دون ضابط أو رابط من أوامر ونواه ، حتى يشبوا وقد تشربوا بروح الحرية ، واعتادوا تحمل « المسئولية » ... فهل هذا هو الطريق المستقيم فى تربية النشء تربية استقلاليه ؟ .

قلت :

— ما من شك فى أن « الحرية » وتحمل « المسئولية » هما الدعامتان اللتان تقوم عليهما « الشخصية » ... وأن حرمان النشء من حريته واستقلاله فيه إلى حد كبير تحطيم لشخصيته ... غير أن بعض الآباء والمربين يرون أن هـــذه الحرية وهذا الاستقلال قد انقلبا عند بعض النشء إلى فوضى وعبث وقلة أدب » ، ويفضلون المودة بالصغار إلى النظام والصرامة والطاعة

العمياء ... في الحق أن الخلاف راجع إلى سوء فهم كلمات « الحرية » و « الاستقلال » و « المسئولية » ... ذلك أن المطلوب لتكوين شخصية النشء ليس حرية العمل ؛ بل حرية التفكير ... فليست الشخصية المستقلة البارزة القوية هي التي تفعل ما تريد... لأن فعل الإنسان لما يريد هو الفوضى ... ولكن الشخصية المستقلة هي التي تفكر دائماً كما تريد ، لا كما يراد لها ... اليوم الذي نعلم فيه النشء كيف يقرأ ويدرس ، لا ليحشو رأسه ، بل ليفكر برأسه ، هو اليوم الذي نستطيع فيه أن نقول إننا غرسنا في روحه استقلال الشخصية .

قالت العصا :

— حقاً ... إن استقلال الشخصية ليس في حرية العمل ، بل في حرية التفكير ...

دواء الغلاء

قالت العصا :

— لا حديث للناس اليوم إلا عن الغلاء ... هذا الداء المستعصى الذى تعبت الرءوس وكلت الهمم فى البحث عن علاجه ... ألا ترى له من دواء ؟ ! ...

قلت :

— فلنبحث أولا عن أصل هذا المرض ، بعيداً عن نظريات العلماء والخبراء ... إنه فى حقيقة الأمر لا يختلف كثيراً عن أى مرض من تلك الأمراض التى قيل فيها قديما : « البطنة أصل الداء ، والحمية رأس الدواء » ... فمهما يكن من قوة الأسباب الاقتصادية أو غيرها مما يؤثر فى السوق ويرفع الأسعار ، فإن السبب الأكبر هو فى أيدينا نحن ؛ بل فى بطوننا ... فمواد الطعام من لحم ، وخبز ، وفاكهة ، وأرز ، لن ينخفض سعرها كثيراً فى أى يوم ما دمنا نريد أن نضعها على موائدنا فى كل يوم ... إن شراهة المنتج والبائع ، إنما تنبع من شراهة المشترى والمستهلك ... وإليكم تجربة تثبت ذلك بالدليل :

قوموا معشر المستهلكين بحملة واسعة النطاق ، واستخدموا فيها الصحف والإذاعة وكافة طرق النشر لتحديد الأصناف وتنظيم ألوان الطعام لكل قادر وكل بيت ... محذرين من أكل الفاكهة ، أكثر من مرتين فى الأسبوع ، واللحم أكثر من ثلاث مرات ، والأرز أكثر من مرتين أو ثلاث ... واحملوا حملة شعواء على الإسراف والتبذير والترف فى المأكل والملبس ، وروّجوا للقناعة والبساطة ، ولا أقول للزهد والتقشف كما فعلت انجلترا منذ عامين ، فنجحت ، لا فى مقاومة الغلاء فقط ، بل فى القضاء على أزمتها المالية ... افعلوا ذلك بكل وسيلة ، وأنتم ترون العجب : إن الكروش ستختفى وينقص الترهل ، ومرض السكر ، وضغط الدم ، وتنقص الأسعار ، وتعمر الجيوب ويطعم الفقير والغنى ...

قالت العصا :

ـــ حقاً ... لا فائدة من علاج الغلاء قبل أن نعالج بطوننا وترفنا ... لاشىء يقتل البائع الطامع غير المشترى القانع ...

مرآة الفكر

قالت العصا :

— من الناس من يقرأ ببطء ويجهد فى القراءة كما يجهد الكاتب فى الكتابة ... ومنهم من يمر بعينه فوق الورق كما تمر الطائرة فوق بقعة الأرض ... فأى الناس أكثر انتفاعاً بما يقرأ : البطيء أم السريع ؟

قلت :

— ليست العبرة بالبطء والسرعة ... ولكن العبرة بالحاصل من القراءة ... وهذا الحاصل يضخم أو يضئول بحسب قيمة القارىء نفسه ، وما اكتنز من ثقافة أو تجربة أو خبرة أو نضج فى شئون الذهن والحياة ... فالكتاب الواحد قد يتفاوت معناه بتفاوت قرّائه ... كما أن المرآة الواحدة قد تختلف صورها باختلاف الناظرين فيها ... فالقارىء فى حقيقة الأمر إنما يقرأ بتجاريبه ، لا بعينيه ... وهو يغوص فى أعماق الكتاب على قدر ما تسمح به قوة عضلاته الفكرية ، وطول خبرته الإنسانية ...

لهذا شتان بين ما يحصله غلام من قراءة كتاب مثل « كليلة ودمنة » ، وبين ما يحصله رجل ... كلاهما قد حصل شيئاً من غير شك ... ولكن كليهما قد فهم منه بقدر فهمه للحياة ، — بل إن القارىء العميق يستطيع أن يعمق أحياناً ما يبدو بسيطاً من المعانى لمن يمر بها عبراً ، ولا يخطف بصره منها غير الزبد المتطاير ...

قالت العصا :

— ربما كان الكتاب كالمرآة حقاً ... هى تعكس صورة الوجه ... وهو يعكس صورة الفكر ...

المهن الراقية

قالت العصا :

— من الطريف المعجب أن نرى الطبيب ، والمهندس ، والضابط ، والتاجر ، ومن فى مستواهم العلمى أو الثقافى فى بلاد متحضرة كانجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وإيطاليا يحسنون الإنشاء ، إذا كتبوا بلغة بلادهم ، والإلقاء بها إذا خطبوا ... فى حين أن هذه الطبقة بالذات من المتعلمين فى بلادنا ندر فيهم من يحسن التعبير باللغة العربية السليمة إذا كتب أو خطب ...

— هذا حقاً ما يلاحظ مع الأسف الشديد فى بلادنا اليوم ... ولم يكن الحال كذلك فى الجيل السابق ... فقد كان المتعلمون — على قلة عددهم أكثر احتفالا باللغة العربية ، وأشد عناية بامتلاك ناصيتها من أغلب أهل هذا الجيل ... ويكفى أن نراجع أساليب القضاة فى الأحكام لنجد فى بعضها قطعاً قد تعد فى الأدب ... ولعل السبب فى ذلك هو أن الجيل الماضى كان أكثر اعتماداً على نفسه وعلى مطالعاته الخاصة فى تكوين ثقافته وأداة تعبيره ...

وكانت تلك المطالعات أعم وأدسم ، لأنها لم تقتصر على الصحف والمجلات ... وهذا هو الواقع فى البلاد الأخرى المتحضرة ، فمن النادر هناك أن تجد متعلماً من أهل هـــذه المهن الراقية يهمل تكوين فكره هذا الإهمال الملحوظ فى بلادنا ...

قالت العصا :

لقد فهموا هناك أن المهن الراقية بغير رقى التكوين إنما تهبط فى الحال إلى مستوى المهن اليدوية ...

العمل الكامل

قالت العصا :

— هل من واجب الفنان أن ينتج فنه ولا يشغل بشيء غير إنتاجه . أو يتولى بنفسه الدعوة له والخصومة فيه ؟ ...

قلت :

— لقد عرف تاريخ الفن هذا وذاك ... عرف « شكسبير » الذى كان ينتج روائعه الخالدة فى صمت ... دون أن يترك ورقة يفسر بها عمله ، أو يرد فيها على نقاده ... وعرف « بيتهوفن » الذى كان ينتج آثاره الباقية فى عزلة ... مكتفياً بتلك الكلمة التى قالها يوماً فى نقاده ومهاجميه : « إنى كالجواد الراكض ... لا يقفه لذع ما تجمع على ذيله من ذباب ! ... » كما عرف « هوجو » الذى كان يخرج المسرحية وخلفها جيش من أنصاره يلتحم فى معركة ، لا كلامية فقط ، بل فعلية ، مع جيش من خصومه ... وعرف « فاجنر » الذى أنفق من الجهد فى الدعوة لموسيقاه ، والخصومة فيها والدفاع عنها ، مثل ما أنفق فى إنتاجها ...

قالت العصا :

— هذا الفرق بين الطرازين من الفنانين راجع إلى طبيعة الفنان أو إلى طبيعة العمل الفنى ؟ ! ...

قلت :

— أعتقد أنه راجع إلى طبيعة العمل الفنى ... فـ « شكسبير » ... و « بيتهوفن » كانا يهدفان إلى كمال الفن فى ذاته ... كان كفاحهما موجهاً ضد النقص ، وضد قصورهما ... وهذا النوع من الكفاح الداخلى لا علاقة له بالناس ... أما « هوجو » و « فاجنر » فكانا يهدفان إلى ترويج مذاهب جديدة فى الأدب التمثيلى والتأليف الموسيقى ... فكان لا بد لهما من كفاح خارجىّ عنيف ، ودعوة تشابه الدعوات السياسية ، تكفل للمذهب الظهور والثبات ...

قالت العصا :

— كل ضجة تخف بعد حين وكل مذهب بعد عصره ذاهب ... وكل جدل مع الريح زائل ... ولا يبقى فى كل زمان غير العمل الكامل ...

استعارة الأردية

قالت العصا :

— أكثر اللغات الأوربية تطلق على المبرز فى المسابقات الرياضية ونحوها كلمة « شامبيون » ... فيقول الناس هناك : « هذا شامبيون العالم فى السباحة أو القفز أو الملاكمة » الخ ... أما نحن فى لغتنا العربية فنترجم ذلك بكلمة « بطل » ... فنقول « هذا بطل العالم فى التنس أو الجرى أو المصارعة » الخ ... وليس هناك شك فى أن هذه الترجمة غير صحيحة ولا دقيقة ولا مقبولة ... لأن وصف « البطل » فى اللغات الأوربية له كلمته ، وهى بعيدة كل البعد عن كلمة « شامبيون » التى تستعمل فى المسابقات » ... فى حين تبقى كلمة « بطل » بقيمتها لا تطلق إلا فى أحوال البطولة بمعناها الحقيقى فى مجال الأخلاق والأعمال التاريخية الكبرى ... فهل عقمت اللغة العربية فلم تتسع — وهى الغنية — لتشمل هذه الأوضاع الحديثة بما يناسبها من كلمات جديدة أو منحوتة ؟ ...

قلت :

— حقاً ... إنه لعجيب أمر هذه اللغة العربية التى تجد فيها

للأسد وللسيف كلمات ومترادفات ، بينما يظل الكثير من أوضاع الحياة الحديثة عارياً من الوصف ، فيستعار له على عجل رداء غيره ... فإذا هو فضفاض ...

قالت العصا :

ـ كثير من الكلمات اليوم فضفاضة على مدلولاتها ، فكلمة البطل ... والأستاذ ، والعالم والأديب ، إلخ ... كلها تطلق جزافا ، حتى فقدت كل قيمتها اللغوية ... أترى العلة فى الفقر الذى أدى إلى استعارة الأردية ، أم فى الإهمال الذى شجع المستعير على أن يستعير ؟ ! ...

غاية الطبيعة

قالت العصا :

— يتساءل الناس منذ أقدم العصور عن غاية « الطبيعة » ويتهون أحياناً إلى أن غايتها هى المحافظة على الأنواع ... أى الاستمرار ... أى الخلود ... كما أن الفنان الخالق — وهو ابن الطبيعة والمستلهم منها والخاضع لقوانينها إنما يهدف هو الآخر من وراء خلقه الفنى إلى الخلود ... لذلك قيل : إن العمل للخلود هو شيمة الفنان الجادّ الملهم الرفيع ...

قلت :

— أظن أن فكرة « الخلود » بعيدة عن غاية الطبيعة ، كما أنها بعيدة عن هدف الفنان الجاد ... لأن معنى الخلود متصل بمعنى الزمن و « الزمن » شعور إنسانى بحت لا تخال « الطبيعة » تحسب حسابه أو تفكر فيه ... كما يفعل الإنسان المحدود المدة والمكان والفكر والعمر ... إنما هى تحيا وتستمر ، وتتكرر ، وتعدل ، وتظهر فى صور مختلفة ومتشابهة ، وتتطور وتتقهقر وتردد ،

وتعيد وتبدى وتقفز ، وتبتكر ، وتمهل وتتراجع ، وتسرع وتتقدم ... كل ذلك بدافع واحد ، هو أن تحقق ذاتها ... وتحقيق الذات هذا كالدائرة المفرغة ، لا نهاية له ولا لتطوراته... كذلك الفنان الحق لا يهمه كثيراً بقاء عمله بعد موته أو زواله ... فهو ليس بالثرى المغرور الذى يعنى طول حياته بإقامة الضريح الذهبي العالى الذى يبقى ذكره فى الناس ... إنما الفنان الحق يخلق هو الآخر بدافع تحقيق ذاته ... أى متابعة التطورات والتغيرات التى تحدثها ملكاته ... لذلك نرى كثيراً من عظماء الشعراء والفنانين فرغوا من إنتاج الآثار المشهود لها بالخلود ، ومع ذلك يمضون فى إنتاج الألوان المتباينة بلا انقطاع إنهم إذن فى الحقيقة يلبون نداء تحقيق الذات فى حالاتها المختلفة وألوانها الخضراء الصفراء ، كما تفعل الطبيعة ، أكثر مما يشيدون الأضرحة المزوقة لخلود الذكر ...

ثالث العصا :

ــ يظهر أن « الخلود » هو « نتيجة » لا « غاية » عند الطبيعة والفنان .

العالم الأفضل

قالت العصا :

— هل الإنسان يسير حقاً نحو عالم أفضل ؟ ... أو أن فكرة الغد الأفضل هى السراب الضرورى للإنسان كى يعيش مواصلا السير فى صحراء الحياة اللانهائية الآفاق ؟ ! ...

قلت :

— إن كلمة «الأفضل» هى التى يجب أن نقف عندها طويلا ، ونقلبها بحثاً وفحصاً ... ما هو المقصود من كلمة « الأفضل » ؟ ... أهو التقدم المادى ؟ ... أهو الرقى الروحى ؟ ... أهو الشعور بالسعادة الفردية ؟ ! ... أهو الاندماج فى الهناءة الاجتماعية ؟ ... إذا كان المقصود كل هذا وأكثر منه فهل من الممكن أن يتم ذلك فى الغد المأمول وحده ...أو فى زمن واحد من الأزمان ؟... أو بمرحلة واحدة من مراحل الإنسان ؟ ... لو تأملنا حياة فرد من الأفراد ، لوجدناها تسير من مرحلة الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة إلى الكهولة ... وهى فى سيرها تكتسب عن غير شك

تقدما وربحاً وغنما فى ميادين التجربة والمعرفة والمال والمركز ... ولكنها تخسر أيضاً فى عين الوقت — كلما تقدمت سناً — فى ميادين الصحة الجسمانية والنفسية والروحية ... هل يقاس صفاء النفس عند الطفل ، وإيمان القلب عند الشاب بما فى نفس الرجل وقلب الكهل ؟ ! وهل تقاس سعادة الفطرة والفرحة بالحياة فى الطفولة والشباب بسعادة الرجولة والكهولة ؟ ... هكذا الحال فى البشرية أيضاً ... إنها تتقدم فى نواح ، وتتأخر فى نواح ، وهى فى مراحل حضارتها تكسب فى أشياء وتخسر فى أشياء ...

قالت العصا :

— مادام الإنسان يسير فى صحراء حياته بالأمل ، فلا بد من وجود سراب « العالم الأفضل » المطلق ! ...

كل شىء مطلق يعيش فى الخيال المطلق ... ولكن الحقيقة أن « العالم الأفضل » موزع على مراحل حياتنا الفردية والاجتماعية والبشرية ...

خلود الفكر

قالت العصا :

— أيهما هو الذى أراد أن يخلد ذكره ويبق أثره ، ويحافظ على كيانه وجثمانه وسره وعبقريته بتشييد هذا الهرم الأكبر ؟ أهو « خوفو » ؟ أم هو العلم الهندسى والإبداع الفكرى ؟ ...

قلت :

— لقد اعتاد قصار النظر من المؤرخين أن يزعموا أن الهرم الأكبر هو وليد نزوة لأحد الفراعنة ... وهذا صحيح لو صح أن بقاء الأنواع هو وليد نزوات وشهوات ومتع وقتية ... وغداً سيزعم هذا النفر من المؤرخين أن اكتشاف أسرار العلوم الذرية وليد حرب سخيفة بين دول متوترة الأعصاب ... كل هذا صحيح فى الظاهر ، ولكن المتعمق فى البحث يجد العكس هو الأصح ... ويرى أن قانون بقاء النوع هو الذى يستخدم نزوة الإنسان ومتعه ليحقق هدفه ... فهو السابق على النزوة ، الدافع إليها ... فالتقدم العلمى الهندسى الرائع فى العصر الفرعونى هو

الذى أغرى « خوفو »... والتقدم العلمى الذرى فى العصر الحاضر هو الذى يغرى الدول ... فالمعرفة البشرية ، سواء أ كانت فى العلم أو الأدب أو الفن ، لها قانونها فى البقاء والاستمرار والتقدم... وهى تعيش وتعمل وتنمو مستخدمة لهدفها الضعف الإنسانى وقوته ، والخير والشر على السواء ...

قالت العصا :

— إن المتعة تذهب بعد لحظة ... ولكن النسل يبقى ... والنزوة تزول : ولكن الأثر العلمى أو الأدبى أو الفنى يعيش ... ماذا يهمنا اليوم من نزوة « خوفو » ونحن أمام معجزة هندسية فنية ! ... حقاً ... إنها المعرفة الإنسانية : هى التى أرادت أن تخلد نفسها من خلال غرور الإنسان ...

طابع الحضارة

قالت العصا :

— من الملاحظ أن الأمم الناشئة الآخــذة بأسباب الحضارة تريد أول ما تريد أن يكون لها فى ميدان الحضارة طابع خاص ...

قلت :

— شأن الصبي الذى يريد أول ما يريد أن تكون له بين أهل الدار شخصية بارزة ... فهو يتـكلف فى سبيل هذه الرغبة من المظاهر ما يظن أنه يحقق هــذا الهدف ... إلى أن يشب وينضج ، فيدرك أن الشخصية لا تكتسب بالمظاهر ولا بالرغبة ولا بالإرادة . . إنما هى صفة تلحق الإنسان بدون أن يسعى إليها ، عندما تنشط أعماله وتنمو ملـكاته وتكثر تجاريبه ، وتحفر يد الحياة على جبينه خطوط النجاح والإخفاق ، والظفر والهزيمة ، والقوة والضعف ، خطوطاً كلما برزت على صفحات النفس برزت معها الشخصية واضحة جلية ... كذلك الحـال

فى الأمم ... لا بد لها من شوط كبير فى الحضارة التى تأخذ بأسبابها ... تجرى فى ميدانها وتكبو ، وتصيب وتخيب ، وتغنم وتغرم . وتتمرس بكل ما يصادفها فى الطريق من ظروف طيبة وخبيثة ... لتخرج من هذه الخبرة وقد دمغ جبينها بآثار المعركة ... فإذا الدنيا ترى على أديم وجهها — دون أن تشعر هى أو تأبه — طابعها الخاص ...

قالت العصا :

— حقاً ... إن الطابع الخاص فى الفن والحضارة ، شىء لا يتم بالإرادة ... بل لا بد له من النضج الطبيعى ...

الماضى طريق المستقبل

قالت العصا :

— جرت الألسنة بالقول إن الماضى فى بلادنا له أثر واعتبار ، وإن فرط الاهتمام به هو الذى يسد علينا مسالك التفكير فى المستقبل ! ...

قلت :

— هذا رأى بعيد عن الصواب ... فنحن أقل الأمم اهتماما بماضينا ... بل نحن لم نلتفت إلى آثار الماضى إلا بعد أن كشف لنا عن أستاره الأجانب ... ولقد تسأل المثقف منا عن أفكار وأخبار عظيم من عظمائنا مات ، لا أقول منذ مائة عام ، بل منذ ثلاثين عاما أو أربعين فقط ، فلا تظفر منه إلا بالجهل وقلة الاكتراث ... فى حين أنك لا تجد رجلا مهما ، ولا فكرة بارزة أو فترة حافلة فى حياة الأمم المتحضرة الراقية إلا وقد درست وبحثت وأبرزت ... فما يكاد عظيم هناك يموت ، حتى يؤرخ له المؤرخون ، فلا تترك من أفكاره ولا من آثاره ناحية

دون أن يكشف عنها الستار ، ويلقى عليها الضوء ... هذا الاهتمام الذى يربط حلقات الماضى فترة بفترة ، ورجلا برجل ، وفكرة بفكرة ، وجهداً بجهد ، هو الذى يشق لهـــذه الأمم طريق المستقبل ... ذلك أن الخطأ الأكبر هو أن تظن أن المستقبل شيء منفصل عن المـاضى ... إنمـا الزمن حلقات متتابعة ... ولن نجد المستقبل نامياً إلا من بذور الماضى ... وإذا كنا نحن لاهين عن مستقبلنا ، فذلك لأننا لاهون أيضاً عن ماضينا ...

قالت العصا :

— الأمم الناشئة مثل الطفل ، لا تهتم بماض ولا بمستقبل ... إنمـا هى مثله ، تهتم بالحاضر وحده ... الحاضر هو الزمن الوحيد الذى يغرق فيه الأطفال ...

روح الإنصاف

قالت العصا :

— إنه لمن أصعب الأمور — فيما يبدو — أن يحكم الإنسان حكماً عادلا على تصرفات غيره ! ...

قلت :

— هذا صحيح ... ووجه الصعوبة فى ذلك هو أنه ما من إنسان — إلا فى النادر — يحاول أن يضع نفسه فى موضع الغير بظروفه كلها أو بعضها عند الحكم على تصرفاته ... وقد يكون مرد ذلك أحياناً إلى جهل الإنسان بظروف الغير ، أو تجاهله لها... وقد يكون مرد ذلك إلى طبيعة الإنسان ذاته ... فمن الناس من يكون محيطاً كل الإحاطة بالظروف التى دفعت شخصاً آخر إلى تصرف من التصرفات ، ولكن طبيعة نفسه غير المنصفة تأبى أن تدرك ، أو تعترف أنها كانت تفعل عين هـــذا الفعل ، أو ما يشابهه ، لو أنه وضع فى عين الظروف ... وهذا الرفض للإدراك أو للاعتراف ، إما أن يكون صادراً عن أثرة واعتداد

وكبرياء ، تلقى على البصيرة نوعاً من الغشاء ، وإما أن يكون صادراً عن ضعف فى الخيال ، وفقر فى التجارب ، ونقص فى العلم بأسرار النفوس ... وذلك أن الحكم العادل على أعمال الغير يتطلب معرفة تامة بخبايا النفس ، وخبرة واسعة بخفايا الطبع ، وخيالا خصباً يحملنا إلى مكان الآخرين فنعيش لحظة بالتصور والمخيلة فى حياتهم بطبائعهم وظروفهم ، متجردين عن الزهو الذاتى ، لنحكم ونقول : هل هم معذورون ؟

قالت العصا :

— حقاً ... إن روح الإنصاف والعدل لا يمكن أن يحل فى جسد من الكبرياء والجهل ...

استقلال التفكير

قالت العصا :

— هل هناك علامة تدلنا على أن شخصاً من الأشخاص قد وصل إلى مرحلة الاستقلال فى التفكير ...

قلت :

— نعم ... هناك علامة بسيطة ، هى أن نرى الشخص يعرف منبع تفكيره ، وأن يعترف بأثر غيره فى هذا التفكير ... هكذا نرى « غاندى » يقر دائماً أنه مدين بفلسفته إلى « تولستوى » ... ونرى « محمد عبده » يقول : إن أستاذه فى تفكيره هو « جمال الدين الأفغانى » ... « وأرسطو » لا يفتأ يكرر أنه تلميذ « أفلاطون » حتى فيما ابتكره هو من مذاهب ... و « جوته » يعلن تأثره الشديد بتفكير « فولتير » ... الخ ... هذه المعرفة ، وهذا الاعتراف ، هما دليل الشخصية الفكرية التى تشعر أنها استقلت بالفعل ، وأنها بلغت فى استقلالها الحد الذى ترى معه جذورها ، ولا يضيرها أن تذكرها وتنيه بها ...

على عكس ذاك الشخص المبتدىء ، أو الشاب فى مطلع تفكيره ؛ فإنه لا يستطيع أن يرى الملابع — الموحى إليه ، وإذا استطاع ، فإنه يخفيه فى الحال عن نفسه وعن الآخرين ، مؤكداً أنه ما تأثر قط بأحد ... وهو يظل على هذا الجهل أو التجاهل ، مخفياً رأسه ، كالنعامة ، فى الرمل إلى أن يصلب عوده وينضج تفكيره ، وتتلون ثماره ، فلا يجد عندئذ بأساً من أن يذكر جذوره ...

قالت العصا :

— حقاً ... إن الاستقلال فى الفكر لا يبدأ إلا عندما تعرف وتعترف أن تفكيرك كان بذرة فى ثمرة الغير ! ...

الروح السلبية

قالت العصا :

— يظهر أن هناك شعوباً إيجابية وشعوباً سلبية . .

فشعوب الطراز الأول تواجه كل شيء بروح العمل والبناء والإنشاء ...

وشعوب الطراز الثانى تواجه كل شيء بروح الكسل والهدم واللوم . . .

قلت :

— هذا صحيح ... وآية ذلك ما نراه أحياناً فى بلادنا من شيوع هذه الروح السلبية ... فما أكثر ما نسمع ونقرأ ونتحدث عن تقصيرنا فى كذا ، وعدم استطاعتنا لكذا ، وتقليدنا لكذا ، وعجزنا عن كذا ، وفقرنا فى كذا ... ولكن قلما نعثر بيننا على من يتوفر بإخلاص وجهد واجتهاد على ما وصلنا إليه بالفعل ، وما حققناه فى الواقع ، فيدرسه دراسة دقيقة ، وينظمه ويصفيه ويقومه ويبرزه حتى يكون أساساً لطبقات أخرى منتظرة أو درجات أخرى منشودة ... هذه الروح

الإيجابية البنائية يندر أن نراها فى بلادنا الآن ؛ بل لقد بلغ من تمكن الروح السلبية فينا أننا نرى بيننا من إذا أراد أن يشيد بعمل أو شخص لم يجد طريقة يعبر بها عن غرضه غير أن ينتقص من قدر عمل آخر أو شخص آخر ... فهو لكى يضع حجراً لابد أن يسقط حجراً ... ولهذا لا يمكن أن يقوم بناء أو يتم إنشاء ...

قالت العصا :

— إن الشعوب فى مبدأ تطورها كالأطفال فى مطلع تكوينهم تتغلب عليها الروح السلبية ، فمن السهل على الطفل الذى يريد مباشرة نشاطه والاستجابة إلى داعى حيويته ، أن يحقق ذلك بأن يقذف نافذة بحجر ... ولكنه عندما يكبر ويقوى وينضج ، يرى الوسيلة فى تحقيق نشاطه ، هى أن يرسى ذلك الحجر أساساً لبناء ...

وحدة الفكر

قالت العصا :

— هل يتحد الناس جميعاً فى مستوى الثقافة والفكر فى يوم من الأيام ؟ ...

قلت :

— لو استطعنا أن نتخيل عالماً مثاليا يسود الأرض فى يوم من الأيام ، تحل فيه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التى تفرق بين النـاس ، وتجعل منهم الغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم ، والعالم والجاهل ... عالما مثاليا قد أصبح الناس فيه متساوين فى الثروة والسلطة والمعرفة ... لو استطعنا أن نتصور إمكان ذلك فإن الذى لا نستطيع أن نتصور إمكان حدوثه هو أن يتحد الناس جميعا فى درجة واحدة من درجات الثقافة والفكر ... فالتعليم الموحد لا يولد الفكر الموحد ، ولا الثقافة الموحدة ، لأن الفكر وليد الطاقة الذهنية التى تختلف باختلاف القوة العقلية فى الأفراد ... والثقافة وليدة ملكات إحساسية تختلف باختلاف الطبع والعاطفة والميل الطبيعى فى كل إنسان...

فهذا الاتحاد فى المستوى الثقافى والفكرى ، لا يمكن أن يتم إلا إذا سبقه تشابه تام وتطابق كامل فى درجات القوى العقلية والشعورية ... ولا يبدو حتى الآن ما يدل على أن الطبيعة تنوى إجراء هذا التعديل فى خلق الإنسان ...

قالت العصا :

بل إنه لمن العسير أن نجد — حتى فى طبقة المتحدين فى الفكر والثقافة — اتحاداً تاماً فى الحكم على فكرة من الأفكار ، أو فى الميل إلى أثر من الآثار ... وإذا اتحدوا فى الحكم والميل ، فقلما يتحدون تماماً فى الزوايا التى منها نظروا وشعروا ... لعل خطوط العقول أو القلوب مختلفة فى الناس كاختلاف الخطوط فى بصمات الأصابع ...

عصر الغابة

قالت العصا :

— يبدو أن الكرة الأرضية تدور اليوم بسرعة حول محور عجيب . . . قطباه لا يسميان الآن القطب الشمالى والقطب الجنوبى ، بل اسمهما النجاح والإخفاق ... كل دولة . وكل فرد ينجذب إلى هذا المغناطيس المسمى « النجاح » جاعلا منه إيمانه ودستوره ... فهو يطلبه بأى ثمن دون نظر لأى اعتبار ... وهو يتجنب الإخفاق ، ولو كان معه الشرف ومبادىء الأخلاق ...

قلت :

أظن أن طلب النجاح ليس بالأمر الجديد على الشعوب والأفراد ... ولكن الحق أنه كان فيما مضى مقيداً بحدود ... حدود من المبادىء . . كانت الدولة تسعى إلى الفوز فى الحروب، ولكن شيئاً من المبادىء كان يمنعها من استخدام أى سلاح ... وكان الناس يسعون إلى النجاح فى الحياة ، ولكن السلوك القويم والذوق السليم ومبادىء الأخلاق والفضائل والمثل العليا كانت

تخجلهم وتصدهم عن طلب النجاح من أى طريق ... كان طلب الفوز والنجاح موجوداً ، ولكن كان هناك تخير مفروض بالعرف فى السلاح والأسلوب ... أما اليوم فإن جموح الدول الجنونى ، وانطلاقها إلى الحرب المبيدة بكل سلاح وحشى دون وازع من ضمير ، أو رادع من مبدأ إنسانى ، قد أوحى إلى الناس أن ينطلقوا هم الآخرون إلى النجاح فى الحياة بكل الوسائل ، دون خجل أو حياء ، أو زاجر من شرف أو خلُق .

قالت العصا :

— عصرنا اليوم لا يعرف غير شيئين ، دولة منتصرة ودولة منهزمة ، ورجل ناجح ، ورجل فاشل ، والباقى لا يهم ... إنه عود إلى عصر الغابة ...

حلقات العمر

قالت العصا :

— صدق من شبه حياة الإنسان بالنهر ... فهى تجرى حقاً فى أمكنة متعددة وأجواء مختلفة ، لتصب آخر الأمر فى محيط اللانهاية ...

قلت :

بل إن أعجب ما فى حياة الإنسان أنها ليست حياة واحدة ، إنها سلسلة حيوات تتابع فى حلقات العمر الطويل ... فحلقة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحرى واتجاهها الملائكى ... وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعرى واتجاهها المثالى ... وحلقة الرجولة لها حياتها المستقلة بجوها التأملى واتجاهها الواقعى ... وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفى ... وهلم جرا ... وهذه الحلقات منفصلة فى أكثر الأحيان إحداها عن الأخرى ، انفصالا ملحوظا ...

فإن ما كنت تعيشه فى حلقة ، لا يصلح لك فى حلقة أخرى ... فالجمال الذى كان يفتنك فى الشباب لا يؤثر فيك وأنت فى الرجولة ... والكتاب الذى كان يثقل عليك فى الصبا قد يسحرك فى الكهولة ...

قالت العصا :

— من هنا جاء تصادم الأجيال ... فكل جيل يحكم على غيره بمقاييس الحلقة التى هو فيها دون أن يفطن إلى اختلاف الجو عند الآخر ... فمن يعيش فى حرارة الشباب يظن كل شىء حارا ... ومن يعيش فى برودة الشيخوخة يظن كل شىء باردا ... ولو أنصف الجميع لاعترفوا بأن الحياة مناطق وأجواء ...

عمر الشجرة

قالت العصا :

— نسمع فى بلادنا من حين إلى حين بعض المنتقدين يحملون على نظامنا الاجتماعى ، ونشاطنا العلمى والأدبى والفنى بقولهم : « انظروا إلى المجتمع فى أوربا تجدوا الرقى والتقدم ، أما هنا فإنكم تجدون الجهل والتخلف ... وانظروا إلى علمائهم وأدبائهم وفنانيهم... تجدوا المحصول الوافر والإنتاج الناضج... أما عندنا فإنكم تجدون الأثر الهزيل ، والثمر الضئيل ... » هل معنى ذلك أننا من طينة أخرى غير طينة الأوربيين ... وأنه قد كتب لهم الفوز ، وكتب علينا العجز ؟ ! ...

قلت :

— شأن هذا الطراز من المنتقدين شأن من يمر بشجرة تفاح عمرها عشرة أعوام ، قد تمكنت جذورها من الأرض ، فكثر إنتاجها ، ونضج ثمرها ، فيعجب بمنظرها ثم يبصر إلى جوارها شجرة تفاح أخرى عمرها عامان فقط ، لم تمتد بعد جذورها

فى الأرض فهزل محصولها ، وضؤل ثمرها ... فيقف منها موقف الساخر قائلا : « انظروا ... أين هذه من تلك ؟ ... » إلى أن يمر به من يسخر بحكمه الساذج ، لافتاً نظره إلى أهمية العمر والسن والزمن ! ... قائلاً له : « أعط هذه من الوقت ما أعطى لتلك ، ثم احكم ! ... » قبل أى نحكم على مجتمعنا الحديث ، يجب أن نسأل عن عمر دعائمه بالنسبة إلى أعمار ذلك فى نظائره ... وقبل أن نعيب علمنا أو أدبنا أو فننا الحديث ، يجب أن نبحث متعمقين متى وضعت بالضبط أسسه الجديدة ؟ ... ومتى بدأت أسس النهضات للعلوم والآداب والفنون فى أمم أوربا ؟ ! ...

قالت العصا :

لا يظهر الحكم المتزن إلا عندما تظهر تباشير النضج ! ...

الحلم الحى

قالت العصا :

— يظهر أنه لا جهد يضيع عبثاً فى هذا الوجود ... حتى جهد أولئك الذين أضاعوا حياتهم فى الأحلام ...

قلت :

— هذا صحيح ... حتى جهد ذلك الرجل الذى هام على وجهه فى الصحراء ، يناجى شبح محبوبته بشعر يتفجر من خياله المحموم ... لطالما قال فى مثله أهـل زمانه : « ذاك رجل ضائع ! ... » ... ولا جدال فى أن مثل هذا الرجل الحالم قد ضاع بين حقائق زمنه ... ولكن زمانه مضى بوقائعه وحقائقه ورجاله وأهله ... وإذا الرجل الحالم بخيالاته وشعره وأحلامه يصبح حقيقة ثابتة فى زمن آخر وعصر آخر ... ويعيش فى مجتمعات مختلفة متعاقبة باسم « امرىء القيس » أو « عمر بن أبى ربيعة » أو « شيلى » أو « بيرون » ... إن الفرق بين الحلم والواقع هو فرق الوقت . . كالفرق بين الليل والنهار . .

وكثيرون ممن يعيشون فى الواقع ، يطويهم الظلام إذا أقبل ...
وكثيرون ممن طوتهم الأحلام ، يتحقق حلمهم إذا طلع النهار ...

قالت العصا :

— لعل الناس فى ذلك ينقسمون إلى فئتين :

فئة تعيش مع حاضرها وتندمج فيه ، وترضع لبانه ، وتمتص ثمراته ، وتلتصق به التصاقاً شديداً فى خيره وشره ، فإذا ذهب ذهبت معه ...

وفئة تخاصم حاضرها ويخاصمها ، فلا تندمج فيه كل الاندماج، ولا تلتصق به كل الالتصاق ، فإذا ذهب لم تذهب معه ... وبقيت إلى زمن آخر وعصر آخر ...

فى الآخرة

الاتصال بالعالم الآخر

قالت لى العصا ، وقد رأت فى يدى صحيفة :

ماذا تقرأ هكذا باهتمام ؟ ...

قلت :

— أقرأ خبراً عجيباً ... اسمعى :

« جاء أخيراً فى إحدى البرقيات أن « جو وليمسون » مؤسس جمعية الدراسات لما وراء الطبيعة ، ورئيسها السابق قد صرح قائلاً :

إنه سيأتى فى القريب ذلك اليوم الذى يستطيع فيه الإنسان أن يرفع سماعة تليفون روحى ، ويضغط على زر جهاز ، ليخاطب الموتى فى عالم الأرواح ، وإن التجارب الأولى لو نجحت ، فلن تكون هناك أسباب تحول دون اقتناء كل شخص لآلة تليفونية روحية ، لا تكلفه ثمناً باهظاً ... »

قالت العصا :

— هذا اختراع عجيب حقاً ... تصور هذا الجهاز فى متناول يدنا الساعة ، فمن نطلب من أهل العالم الآخر ؟ ...

قلت :

ــ أترك الأمر لاختيارك أنتِ ...

قالت العصا :

ــ اتفقنا .. سأتخيل الآن الجهاز أمامى ... وسأطلب روح من يخطر على بالى ... ولك إذا شئت أن توجه الأسئلة وتتلقى الأجوبة ...

مع حواء

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت حواء ... فسمع صوت آتٍ من بعيد :

ــ أنا حواء ... من يطلبنى ؟ ...

ــ هنا الدنيا ! ... نهارك سعيد ! ...

ــ نهارى سعيد ؟ ... أى نهار تعنى يا هذا ؟ ... وما معنى النهار ؟ ...

ــ عفواً ... نسيت أنه لا يوجد عندكم نهار ولا ليل ! ... بماذا أحييك إذن يا أم البشر ؟ ... كيف يسلم بعضكم على بعض فى الآخرة ؟ ...

— لا حاجة بنا إلى ذلك ... ماذا تريد منى ؟ ... لا تضيع الوقت فى التافه من الكلام ...

— هل آدم معك ؟ ... ليكن فى علمك أنى طلبت محادثتك على انفراد ؟ ...

— اطمئن . . . إنه اعتاد من زمن طويل . . . منذ كنا على الأرض أن يسد أذنيه عن محادثاتى الخاصة ...

— وهل كانت لك محادثات خاصة على الأرض ؟ ...

— طبعاً ! ... وحتى قبل أن نهبط إلى الأرض ، ألم أحادث الحية طويلا ... لقد كان آدم يرى كل شىء ويتظاهر بالصمم... وعندما أخبرته بجمال شجرة التفاح سمَّى عملى إغراء ...وعندما سئل عن حديثى مع الحية قال : إنه لا يستطيع منع امرأة من الحديث والثرثرة ...

— حقاً ... إنه يلقى عليك أنت كل التبعة فى إخراجه من الجنة ...

— ولو علمت كيف سمم حياتى بعد ذلك طول وجودنا على الأرض ! ... إنه لا يريد أن يفهم أنه شريكى فى كل مافعلنا ونفعل ... ولكننى فى نظره مخلوق وجد ليلقى عليه مصائبه وكوارثه ، وعواقب ضعفه ونزواته ... يا لقسوته !... إنه لا يريد

حتى أن يعتبرنى ضلعاً من أضلاعه ! ... إن له ساقين تحملان جسمه ، فلا بد من ثالثة تحمل ذنبه ووزره ! ... أنا هذه الساق...

— لو عرفتِ كيف تكلف هذه الساق رجال اليوم ؟! ... إنها تغلف فى جوارب من « النايلون » باهظة الثمن ! ...

— ما هذا « النايلون » ؟... أهو نوع من ورق التوت ؟ !...

— لا ياجدتى ... إنه نوع من ...

— رجائى إليك ألا تناديني بجدتك ! ... لست أدرى لماذا كان يثقل على أذنى هذا اللفظ ؟... ثم إنك لا يمكن أن تتصور مقدار ما كنت عليه من حسن ! ... ثق أنى لم أنجب إبنة قط فى مثل جمالى ! ... ومهما يكن فى آدم من عيوب ، فإن له فضيلة لا تنكر ، وهى خضوعه لحسنى ؛ وافتتانه بجسمى ، وإذعانه لرغباتى ، وتنفيذه لطلباتى ... ولو كنت أمرته أن يحضر لى هذا الذى يغلف الساق ... ماذا قلت عنه ؟ ...

— جوارب النايلون ! ...

— نعم ... حدثنى عن هذا النايلون ...

— وما فائدة ذلك الآن ... مادام آدم لا يستطيع أن يحضره لك فى العالم الآخر ؟ ...

— صدقت ... إنه لا يحضر لى شيئا ... لقد شاخ وهرم ...

أقصد عندما كان فى الأرض ، لقد كانت الحياة معه لا تطاق . . .
لقد كثر سعاله ... وضاق خلقه ... وثقل ظله ... ولكن
أين المفر لمسكينة مثلى ! ... لو أن فى ذلك العهد آدميَين على
الأقل ! ... ولكنه هو دائماً أمامى آدم واحد ... بوجهه المقطب
المجعد ... وحديثه الممل الذى لا يتغير ...

— لا تحزنى ! ... مشكلتك كانت هينة ، إلى جانب مشاكل
المرأة فى العصر الحديث ... أخبرينى ... ما رأيك فى موضوع
منح المرأة حق الانتخاب ؟ ...

— انتخاب من ؟ ... زوجها ؟ ... أهذا ممكن ؟ ... إنى
لأغبط تلك المرأة التى تستطيع أن تنتخب زوجها وتختار
رجلها ؟... حسرة علىّ !... لم يكن لى حق انتخاب ولا اختيار...
كان رجلا واحداً ... فكان على كل حال خيراً من لاشىء ...
وكان حتما علىّ الرضا به والسكوت . .

— ... لست أقصد حق اختيار الزوج ... فهذا فى يد المرأة
اليوم ، ولكنى أقصد حقها فى أن تحكم وتسوس وتقود ...

— ومن قال لك إنى لم أحكم ، ولم أسس ، ولم أقد ؟ ... من
الذى قاد آدم من يده وأخرجه إلى الأرض ؟... لا تصدق امرأة
تزعم غير ذلك ... لكل امرأة تفاحتها التى تقود بها الرجل ! ...

— قلت ذلك فلم يصدقونى ... لأننا فى عصر نصدق فيه النظريات ، ولا نصدق الحقائق ... فإذا شاع مذهب يقول : إن المرأة ضعيفة ، فيجب أن نصدقه ، حتى ولو رأيناها بأعيننا تمسك بيدها رجلا وتلقى به من حالق ...

— من ذا الذى يسمينى ضعيفة ؟ يبدو لى أنى منذ عشت على الأرض حتى اليوم ... وأنتم تعيشون فى غلطة تغذيها دائماً بلاهتكم معشر الرجال !...وهى أن المرأة ضعيفة...ما من امرأة ضعيفة ... إنها تتظاهر بالضعف ، كما يتظاهر الرجل بالقوة !...

— ماذا تقولين فى كثير من رجال اليوم الذين يسمونها كذلك : ليقال عنهم إنهم مجددون ! ...

— هؤلاء تستطيع أن تنقل عنى هذه الضحكة الصغيرة سخرية بهم ! ...

— عجباً ! ... يا لها من ضحكة ما كنت أظنها معروفة فى عهدك ! ...

— من كنت تظننى إذن يا هذا ؟ ... يا لك من ساذج ! ... صدق ما توقعت منك وتوسمت فيك ! ... أوَ كان آدم يستطيع أن ينجب غير بسطاء من أشباهه ! ...

مع هتلر

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت هتلر ... فسمع صوت يجيب :

— أنا هتلر ...

— أخبرنا هل أنت مت حقاً ؟ . . أو أنك حى مختبىء فى مكان ما ؟ ...

— إنى حى مختبىء ...

— أين ؟ ... أين ؟ ...

— فى قلب كل ألمانى على وجه الأرض ...

— جثة مَن التى وجدتْ فى قبور دار المستشارية ببرلين؟...

— جثتى ...

— هل انتحرت ؟ ... أو قتلت ؟ ...

— وماذا يهم ذلك ؟ ... كل ما أردت هو أن أترك لأعدائى جيفتى ... أما الروح فهى التى لن يأخذوها أبداً ... وهى على الرغم منهم باقية أبداً ... وهى عندما خرجت من جثمانى ، دخلت

خكرة فى نفس كل المسانى ...

— هل تشعر الآن وأنت فى عالم الصفاء أنك مجرم ؟ ...

— نعم ... إنى مجرم ... فقد أخلصت لبلادى حتى الموت ... وهذه فى نظر الإنجليز أكبر جريمة يقترفها رجل غير انجليزى ، لأنه ليس مسموحا لأحد أن يتفانى فى حب بلاده غير الإنجليزى ! ...

— ألم يبلغك ما قاله عنك « تشرشل » ... إنك كنت تحب شخصك أكثر من حبك لبلادك ، وإنك جمعت أنت وأعوانك فى المصارف أموالا تقدر بالملايين ؟ ...

— لقد عثروا على جثتى ، وكان أيسر من ذلك أن يعثروا على شلن واحد من هذه الملايين المكدسة فى المصارف ... ولكنك لا تعرف « تشرشل » ...

— أعرف أنه هو الذى قادك إلى الهزيمة ...

— هل تظن ذلك ... إن الذى أعرفه هو أن « ستالين » قاد الجيوش ، « وروزفلت » قام بالتموين ، أما « تشرشل » فكان البهلوان الذى يصيح ويثرثر ... ويقفز من ميدان إلى ميدان رافعاً إبهامه فى الهواء ! ...

— إنه كان يلعب دور النبى الديمقراطى بطل ميثاق الأطلنطى ! ...

— وماذا حدث لهذا الميثاق ؟ ... تبخر فى الفضاء ... أليس كذلك ؟ ... قلت لك أنت لا تعرف « تشرشل » ! ... هل رأيت على الأقل دخانه ؟ ...

— تقصد دخان سيجاره ؟ ...

— هأنت ذا تسميه سيجارا ؟ .. كلا ... إن « تشرشل » ليس سوى مصنع أكاذيب متحرك ... وهذا الذى فى فمه دائماً مدخنة المصنع ! ...

— حقاً ... لقد صدّر إلينا من بضاعة مصنعه ما لا ننسى ... وموقفه منا فى إعلان الجلاء ، وفى ديون الإسترلينى لأكبر دليل على أنه يكذب علينا بالسهولة التى ينفث بها الدخان من مدخنته ! ...

— لقد امتد دخانه حتى إلى حياتى الخاصة ... لن أنسى أنهم تحدثوا بما لا يليق عن « إيفا » ...

— إيفا براون ؟ ...

— نعم ... زوجتى المخلصة ... المخلصة حتى الممات ... إنها الآن معى هنا ... وهذا كل عزائى ...

— لماذا لم تجلس زوجتك بجوارك على عرش مجدك فى الدنيا ؟ ... ولِمَ لم تجعلها تحتل مكان السيدة الأولى فى المجتمع الألمانى ؟ ...

— عبثاً حاولت ذلك معها ... ولكنها هى التى رفضت وأرادت لنفسها هذا الإنزواء عن المجد والمجتمع والناس ... لأنها لم تشأ أن

تستخدم صلتى بها لمصلحتها الشخصية ، ولا أن تستغل علاقتها بى للظهور . .. لقدكانت أنبل من ذلك نفساً وأرفع شعوراً ،وأصدق عاطفة ، وأعمق إخلاصاً ، وقد فهمت أن رسالتها هى أن تكون بجانبى فى ساعات الضعف والوحدة والوحشة المظلمة ، لا أن تتألق للناس فى ساعات المرح، وساحات النصر ، وحلبات الرقص !...

— كيف ماتت ؟ ... ومتى ؟ ... قبلك أو بعدك ؟ ...

— لقدأ صرت على أن تموت قبلى بدقائق ... وقد سمت ذلك مكرمة تطمع فيها منى ... أن آذن لها بذلك ... لأنها لا تستطيع أن ترانى أموت ... ولقد قالت لى : إن هذا واجبها كزوجة ... أن تسبقنى ولو بلحظات إلى الدار الآخرة ، لتكون هناك فى استقبالى ! ... فأذعنت وأمرت طبيبى الخاص الموكول إليه هذه المهمة ، أن يبدأ بحقنها هى أولاً بالسم الذى أعد لذلك ... وقد ماتت أمامى فى مثل لمح البصر بلا ألم وكأنها إغفاءة انتابتها على حين فجأة ... فأمرت عندئذ الطبيب أن يصنع بى ماصنع بها ، فما كادت إبرة الحقنة تغرز فى جلدى حتى أغفيت ، ثم تنبهت فإذا أنا بجوار « إيفا » ... فى عالمنا الذى أخاطبك منه ! ...

— ألا يقوم الآن فى نفسك أسف لإثارتك الحرب ؟ ...

— لست آسف على سوء الحظ ! ...

— لقد أردت أن تقامر بكل شيء ؛ فكان من الواجب أن تتوقع الحظ السيء ... كما تتوقع الحظ الحسن ! ...

— عندما تكون المسألة بالنسبة لأمة مسألة حياة أو موت ، فلا بد من المقامرة بكل شيء ... ولقد قامرت ألمانيا بحياتها مرتين في ربع قرن ! ...

ألم يخطر لك أن تدرس طرائق انجلترا في المقامرة ؟ ...

— انجلترا لا تدخل أبداً في ميدان اللعب إلا وفي كمها أوراق مغشوشة ! ...

— ربما ، ولكنها استطاعت أن تكسب امبراطوريتها الواسعة... لعبة لعبة ... وورقة ورقة ... وخدعة خدعة ... على مهل ... دون أن تثير ريبة اللاعبين ، أو سخط المراقبين . أو حذر المحاذرين ...

— صدقت ... إنها دائماً تحتل مكانها من المائدة في صورة « لورد » يرتدي ثياب السهرة ويضع « المونوكل » ويجلس بتؤدة ووقار بورقه المغشوش ... في كم قميصه المنثنى ... بين قوم شرفاء لا يشكون في سلوكه ، ولا يعتبرونه إلا مثال النزاهة والصدق والشرف ، لأنه لا يتحدث فيمن حوله دائماً إلا بهذه الكلمات ... ويظل هذا « الجنتلمان » اللص يبتز أموال ملاعبيه ، ويختلس ما في جيوب مجالسيه . بابتسامة لهذا ، وملاطفة لذاك ، ومهادنة مع

واحد، ومواطأة مع ثانٍ ، واتفاق ودى مع ثالث ... إلى أن تنتهى الليلة بمكسبه المرسوم فينهض مشيعاً بالاحترام قائلا للحاضرين :

« جود باى جنتلمين » إلى الليلة القادمة ! ... وهلم جرا ...

— أما أنتم معشر الألمان فلا صبر لكم ... تريدون فى ليلة واحدة وبهجوم خاطف ، وحظ بارق ، أن تحصلوا على كل شىء دفعة واحدة ! ...

— لأننا لسنا لصوصا !...لقد كان فى يدنا حقاً ورقة فائزة... حصلنا عليها بكدنا وعرقنا وعبقريتنا وعلمنا...وكنا نظن أن هذه الورقة الصحيحة وحدها يمكن أن نقامر معها بكل مالنا وحياتنا!...

— لا تنكر أن الإنجليز فى هذه الحرب الأخيرة قامروا هم أيضاً بكل ما لهم وحياتهم ! ...

— لا ياسيدى إنهم قامروا بكل حياة الفرنسيين ، وبكل ما فى جيوب الأمريكان ! ...

— والآن : ما رأيك فى المستقبل ؟ ...

— رأيى أقوله فى جملة واحدة وأنصرف عنك :

« لقد خسرت ألمانيا الحرب ؛ لأنها كانت وحيدة وسيخسر الحلفاء السلام ؛ لأنهم عديدون » ... !

مع كليوباترا

ضغطت العصا على زر الجهاز ... وطلبت كليوباترا ...

فسمع صوت جميل :

— أنا كليوباترا ... من يخاطبنى ؟ ...

— شخص لا علاقة له بأنطونيو ...

— من أنطونيو ؟ ...

— عجباً ألا تعرفين حبيبك الذى انتحرت من أجله ؟ ...

— من قال لك إننى انتحرت من أجل أنطونيو ؟ ...

— ألم تسكبى فى جسمك السم من أنياب الحية عندما علمت أنه أغمد خنجره فى جسمه من أجلك ؟ ...

— ربما مات هو بسببى ... ولكنى لم أمت بسببه ...

— أتنكرين أن الحب هو الذى ...

— الحب عند الرجل مرض ، فلا عجب أن يحاول التخلص منه بالموت ، ولكن الحب عند المرأة صحة ، فلا معنى أن تتخلص منه بالانتحار ! ... كلا يا هذا ... أنطونيو مات لأنه فقدنى ... وأنا مت لأنى فقدت عرشى ! ...

— ألم تقابلى أنطونيو فى الآخرة ؟ ...

— بالطبع تقابلنا مرة أو مرتين ، وضحكنا كثيراً من حماقتنا على الأرض ... وقد اتهمنى بأنى أضعت مستقبله ... وقد اتهمته بأنه أضاع عرشى ! ... ولكن الحب على أى حال لم يكن موضوع الحديث ...

— أنت إذن لا تؤمنين بالحب ؟ ...

— إنى كامرأة أومن بالحب ... ولكن مثلى لم يكن لها الحق فى أن تكون امرأة ... إذا قدر لرأس أن يحمل تاجاً ، فلا ينبغى أن يؤمن بغير شىء واحد : أن يحافظ على ذلك التاج حتى لا يسقط منه فى التراب ، لأنه إذا سقط ... سقط معه شعب بأسره ... كان جبينى يحمل تاج مصر ... ذلك الجبين الذى قيل إنه ناصع وضّاء جميل ... وكانت روما غول الدنيا الذى يبتلع التيجان والعروش ... غولاً ذا رأسين ، أحدهما يدعى قيصر والآخر أنطونيو ... كان من المستحيل على ذراعىّ الطريتين أن تضغطا على عنق الرأسين فى عين الوقت ... فضغطت أول الأمر على عنق قيصر ، حتى ثبتنى على عرشى ، وضمن لى من جانبه الأمان ، ثم أفلت منى ... ولكن الرأس الآخر انحنى لى بعد ذلك طائعاً ، ومكنتنى الفرصة من أن أعصر ذلك العنق وأهصره ، وأسيره

وأسخره لمصلحة بلادى ، حتى وهن وخار ولفظ النفس الأخير... ولكنى معترفة أنى بذهابه ذهب منى كل شيء ... حسبي أنى استطعت أن أحارب ردحا من الزمن ... وأن أجعل الرأسين يتناطحان بدل أن يجتمعا على ابتلاع الأرض ...

— ولكنك أحببت أنطونيو حباً حقيقياً ! ...

— ربما ، ولكن ألم يخطر لكم أن تتساءلوا : إذا كنت أحببته حباً حقيقياً ، فكيف لم أترك عرشى وتاجى وشعبى لأخرج مع حبيبى إلى جزيرة نائية فى وسط البحار ، نعيش للحب ، ولا لشيء غير الحب ؟ ... هكذا فعل فيما علمت ملك من ملوككم العصريين ! ...

— نعم : ملك انجلترا السابق من أجل « ليدى سمبسون »!...

— وهذا رجل لا امرأة ... رجل يزن الأمور ، كما يقال ، لا امرأة تدفعها الأهواء ... ملك من ملوك هذه العصور ، لا ملك من ملوك الأساطير ! ... ملك ذكى طموح ميال للإصلاح كما علمت ، يترك شعبه المحتاج إلى ذكائه وإخلاصه ، ليعيش فى جزيرة نائية ... مع من ؟ ... مع امرأة لا جمال لها ، ولا نضارة ، ولا عراقة ... لكن هذا لا يستغرب ... يكفى أن نعلم أنه انجليزى ، لتحكم فى الحال على مقدار ذوقه ! ...

— حقيقة ... هذا سؤال يجب أن نلقيه على أنفسنا : لماذا لم تتركى شعبك وتذهبى مع أنطونيو ؟ ! ...

— إنى لم أفعل ذلك ، حتى بعد الهزيمة فى موقعة أكتيوم ... وقد تبين لى شبح روما تبتلع مصر ... ويد المنتصر تضع فى معاصمى الأغلال ... ولم يبق لى من شخصى إلا المرأة ، وفى كنوزى غير الحب ... ما كان أنطونيو وقتئذ يتمنى من دنياه غير الهرب معى إلى جزيرة نائية ، مجردة عن العروش والتيجان ، لنقضى بقية العمر فى سلام وصفاء ، وأمن وغرام ... ولكنى لم أفعل ... لأنى كما قلت لك ، لا أملك الحق فى أن أكون مجرد امرأة ... خلفى شعب أنا ملكته ... وعلى جبينى تاج حكمه ... لا ليضيء بمتعتى ، بل ليتألق بمجده ... ويوم يضام هذا الشعب يجب أن أموت ! ... ذلك قانون التيجان ... هى نور ونار فوق الرءوس ... وليس لمن كتب عليه حملها أن يهرب من هذا المصير ! ...

— وما قولك إذن فى ذلك الذى هرب ؟ ... لماذا لا تقولين إنه كان يحب ... أما أنت فكنت امرأة لا قلب لك ...

— أرجو ألا تؤلمنى بهذا الكلام ... ليس لك أن تتهم قلبى ، وأنت لا تعرف عنه شيئاً ... هذا القلب الذى اتسع لحبيبين ! ... وطنى وأنطونيو ! ... كل ما سمعته منى حتى الآن

كان حديث ملكه ! ... ولكن المرأة لم تتكلم بعد ... لقد أحببت أنطونيو حباً لم ينسنى آمال بلادى ... ولكنه كان حباً عظيما ...

— حب أنطونيو لك هو الذى كان حباً عظيما ؟ ! ...

— لست أنكر ذلك ... ولن أنسى أبداً لحظة موته :

لقد كانوا أبلغوه - كذبا - نبأ موتى ... فصاح : وما تنتظر بعد الآن يا أنطوان ... ! لقد سلبك القدر من كانت تجلب إليك الحياة ! ... قالها وهو يدخل حجرته وينزع عنه درعه ، ثم مضى يقول :

« كليوباترا ، لا أشكو من فقدى إياك ، فأنا لاحق بك بعد قليل ، ولكن الذى يحزننى هو أن امبراطوراً قوياً مثلى تسبقه فى الشجاعة امرأة » ! ولم أكن للأسف قد سبقته ولا استحققت هذا الإطراء !

— ولكنه مات ولم يعلم أنك على قيد الحياة ...

— بل علم ولم تكن روحه قد فارقت بعد جسده ، فأمر رجاله أن يحملوه إلىّ ، فما كدت أراه حتى فقدت صوابى ، وصرت أمسح دماءه بوجهى ، وأمزق غلائلى وأضعها عليه وأضرب بيدى صدرى . وأنشب فى لحمى أظافرى ، وأناديه ياروحى ،

وياحبيبي ... وقد طلب خمراً ليروى به ظمأه ، أو ليعجل به موته ، ومات وهو يرجو لى أن أوفق إلى الوسائل التى تصون كرامة ملكى وشرف شعبى ...

— وتركتيه يموت ولم تموتى معه ؟ ...

— لو كنت مجرد امرأة وزوجة وحبيبة لفعلت... ولكن، هذا أيضاً لم يكن من حقى ... كان علىّ أن أفاوض قيصر المنتصر، ليبقى مصر لأبنائها... ويجعل ملكها فى أولادى... ولا يخضعها... لحكمه ولا لحكم روما ، ولكنى رأيت المراوغة فى عينيه ، فأدركت أن مهمتى قد انتهت ... وأن على الملكة أن تؤدى واجبها ... وعلى المرأة أن تطلق العنان لعواطفها وتسير إلى مصيرها ...

— وماذا كان ينوى قيصر أن يفعل بك ؟ ...

— كان يريد أن يرسلنى مع أولادى إلى روما ... لأعيش أسيرة وأموت غريبة فى تلك البقاع ! ... ولكنى لم أمكنه من تحقيق أمنيته وإنى لم أزل أذكر الكلمات التى لفظتها على قبر أنطونيو قبل أن أموت ... ولقد كنت سألت قيصر أن يأذن لى فى إجراء الطقوس الجنائزية لأنطونيو ، فأذن ... فذهبت مع وصيفاتى وألقيت بجسمى على قبره وجعلت أصيح به :

« يا عزيزى : لم تمض غير أيام قليلة منذ أن وضعت على جثمانك يدين كانتا فى ذلك الوقت طليقتين ، واليوم أجىء إليك بهما مصفدتين فى غل الاستعباد ... لا تنتظر بعد الآن من كليوباترا تكريماً خيراً مما ترى ... وهذا مع ذلك آخر ما تستطيع تقديمه إليك ... فهم يريدون أن ينتزعوها من جوارك ... طول الحياة التى عشناها معاً ما استطاع أحد أن يفرق بيننا ... واليوم يريدون أن يقصوا فى الموت أحدنا عن الآخر ... فأنت الرومانى ستمكث هنا تحت ثرى مصر ... وأنا المصرية سأدفن هناك فى إيطاليا ... أنطونيو ، خبئنى معك تحت هذه الأرض... دعنى أقاسمك قبرك هذا .. من بين كوارثى التى لا تعد ... واحدة هى أشقها على نفسى ... تلك هى الأيام القليلة التى عشتها بعدك » ! ...

وذلك كان آخر ما خاطبت به أنطونيو على الأرض وكنت مخلصة فى كل حرف لفظته ، ولقد توجت بعد ذلك قبره بالزهور ، ثم قبلته ، ونهضت آمرة باعداد الحمام واغتسلت ثم تناولت من الطعام أفخره ، ولبست ثيابى الملكية ، واضطجعت على سرير من ذهب ، ثم أمرت بإحضار الحية التى ستخرجنى من

الأرض إلى السماء ... كما أخرجت الحية الأخرى حواء من السماء إلى الأرض ...

— أرجو لك الراحة فى السماء فإن أهل الأرض ينهشون سيرتك فى كل زمان ! ...

— فليقولوا ماشاءوا ... كل ما على الأرض عبث ... ولكنى مع ذلك لم أكن شريرة ... كنت ملكة تحب شعبها ... وامرأة تحب رجلها ... وأمًّا تحب أولادها ... كل مأساتى أن قلبى الواحد كانت تنهشه هذه الألوان المختلفة من الحب !

مع روميو وجولييت

ضغطت العصا على زر الجهاز.. وطلبت جولييت وروميو...
فسمع صوت رقيق :

— أنا جولييت ! ... من يخاطبني ؟ ... اسكت ياروميو ...
دعني أخاطب هذا الذي يناديني من عالم الدنيا ... ماذا تقول
ياروميو ؟ ... أنا خفيفة طائشة متبذلة مستهترة ... أسعى إلى
لفت الأنظار ؟ ... وأنت ... أتنسى نفسك أيها الفظ السخيف ،
الخالي من الرقة والإحساس ؟ ... اذهب عني ... اذهب عني
قليلا ... دعني أتنفس بعيداً عنك لحظة ... ألا يستطيع أحدنا
أن يعيش منفصلا عن الآخر دقيقة ؟ ... إذا قالوا « جولييت »
قالوا « روميو » وإذا قالوا « روميو » ذكروا « جولييت » ...
يالها من « لصقة » ثقيلة ! ... وإلى متى ؟ ... إلى متى ؟ ...

— آلو ... آلو ... هنا الدنيا ...

— أنا جولييت . . . من يناديني ؟ . . . أف ! ... الحمد لله
قد ابتعد عني ...

— تقصدين روميو ؟ ...

— طبعاً .. ومن غيره أقصد ؟ لعنة الله عليه ! ...

— عجباً ... كنا نحسبك سعيدة معه فى الآخرة ...

— سعيدة ؟ ! ... مع هذا الجلف . .

— جلف ؟ ... تقولين ذلك عن روميو ... هذا المثل الجميل للرقة فى العاطفة والشاعرية فى الغرام ؟ ...

— أخدعكم أنتم أيضاً كما خدعنى ؟ ... ولكننى كنت فتاة بريئة غريرة ... فتننى هذا « البهلوان » وهو يتسلق الحبل إلى شرفتى ، فى إطار خلاب من ليل ناعس ، وقمر طالع ، وشجر هامس ، وبلبل صادح ، ولقد أخلصت له الحب حتى قادنى حبى إلى حتفى ...

— هو أيضاً قاده حبه لك إلى حتفه ...

— هذا صحيح ... لقد كنا قلبين مجنحين ... يطيران بلا بصر كالوطاويط فى نهار العقل والمجتمع ! ...

— كنتما شعراً رائعاً يطير فى ربيع الأجيال ! ...

— أتصدق هذا الهراء ؟ ... ولكنك معذور ! ... أنا أيضاً صدقته يوماً ... وما كنت أرى فى « روميو » إلا « نغماً » يرتدى سراويل موشاة ، ويتحلى بسيف مذهب ، وما كان هو يرى فىّ

إلا « أغنية » تبدو فى شرقتها تلمع فى الدمقس.. ولكننى ما رأيته قط - إنساناً، وما رآنى قط إنسانة.. حتى تعانق النغم والأغنية، وانطلقا فى الفضاء من دنيا الأرض إلى السماء... حيث الأردية تخلع، والمعدن يظهر.. وبدت الطبائع على حقيقتها... فإذا طبع « روميو » شىء آخر عما تخيلته وتتخيلون.. إنك لن تدرك ما أقول... لأن الذى بقى لكم منا فى الأرض ذلك النغم والأغنية « روميو، وجوليت » !...

— ما أحلاهما إسمين وعشيقين ! . .

— وما أشقاهما من زوجين !... لو أن القدر مدّ فى أجلينا على الأرض لشاهدتم بأعينكم نهاية هذا الحب، وإخفاق ذلك الزواج، فأنا التى عرفت بعدئذ طباع « روميو » السيئة، ورقته الزائفة، أؤكد لك أنى ما كنت أحتمله زوجاً فى الدنيا أكثر من شهرين !... وهو أيضاً يقول عنى مثل ذلك، ويتهمنى بالابتذال والاستهانة والأنانية...

— حمداً لله - إذن - الذى خطفكما من الأرض فى الوقت المناسب... وإلا كانت وقعت أعظم قضية طلاق عرفها التاريخ...!

— الطلاق !... ياله من نعمة !... ولكن هيهات أن نظفر به ها هنا... مادام القدر قد سلط علينا ذلك المجنون الذى يصلح بيننا كل ساعة على الرغم منا...

— ذلك المجنون ؟! ...

— نعم ... شخص يسمى « شكسبير » ... لسنا ندرى ما شأنه بنا ... يتدخل فى أمورنا ... ويحشر نفسه بلا مبرر فى كل صغيرة وكبيرة مما يمسنا ... كلما احتدم الشجار بينى وبين « روميو » ؛ طلع لنا « شكسبير » هذا ... فجعل يقبل رأسينا وأيدينا وأقدامنا ، يتوسل إلينا أن نمسح « العيب » فى ذقنه ... وأن ننهى الخلاف الذى شجر ... زاعماً أن سوء أدبنا وخلقنا وما نتراشقه من بذىء الألفاظ أحياناً فى خصامنا ، تمس كرامته شخصياً وتنال من سمعته ... وفى الحق أن إخلاصه ، وحرارته ، ودموعه التى يذرفها كل مرة ، تألماً من حالنا تثير فينا الشفقة عليه ، فنذعن صاغرين ، ونهدأ مكرهين ...

— أوَ لا تعرفان ما هى علاقة « شكسبير » بكما ؟ ...

— أبداً ... ماذا يكون أكثر من شخص يعيش على هامش حياتنا ... متمسكا بنا « متمحكا » ؟ ... وأمثال هذه « الطفيليات » كما تعلم لا تخلو منها أسرة ... ولكنه مع ذلك شخص طيب القلب ، كل غايته أن يسود الصفاء بينى وبين روميو ... وأن نتبادل أرق عبارات الحب ... وأن يسمعنا نتحاور بذلك الشعر الرقيق الذى أنشدناه فى الشرفة تلك الليلة المقمرة ... فيجلس بيننا ... ويرجو من « روميو » أن يردد عبارته المعروفة :

« ياسيدتى النبيلة ... أقسم على حبك بهذا القمر الساحر ... هذا القمر الذى يطلى بالفضة رءوس الشجر » ! ...

فأجيبه أنا بعبارتى المشهورة :

« آه ... لا تقسم أبداً بالقمر ... هذا القمر المتغير ... الذى يبدل قرصه كل شهر ... إنى أخشى أن يكون حبك متغيراً كالقمر » ! ...

— أما كان ترديد هذا الشعر يثير فيكما شجون الماضى ؟ ! ...

— لا ... على الإطلاق ... إنما كنا نردده لنسر ذلك المسكين « شكسبير » .. وكان هو وحده الذى يتأثر من إنشاده وتبعث فى نفسه الشجون ... ويطرق طويلا ... ويهبط فى غياهب الذكريات ... ويغرق فى بحار التأملات... ولا يوقظه مما هو فيه إلا عودتنا إلى العراك أنا وروميو ... فينهض واضعاً أصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع ألفاظ السباب ، تحل فى رأسه كما يقول محل ذلك الشعر الذى كان يخلب الألباب ! ...

— لقد عذبتما هذا الرجل فى الآخرة ...

— عذبناه ؟ ! ... بل هو الذى عذبنا ... ماله ومالنا ...أمامه الآخرة واسعة ... فلماذا لا يحلو له وجود إلا معنا ؟ ! ... إنى لا أستطيع أن أحادث زوجى روميو على انفراد دون أن أجد

« شكسبير » هذا يتسمع .. ولا أن أفعل شيئاً دون أن أجده يتفقد سلوكى ... هذا لا يطاق... إنه بيننا مثل الحماة فى بيت الزوجية!...

— وروميو ... هل يحبه ؟ ...

روميو مثلى يعجب لوجود هذا الرجل بيننا .. ولكن يظهر أن هذا أمر لا حيلة لنا فيه ... لو أنى نجحت فقط فى أن أجعله ينحاز إلى جانبى ضد روميو لكان له بعض النفع... ولكنه ثابت فى موقفه ، ولا يحيد عنه : يجب أن نتصافى دائماً ، أنا وروميو ، وأن يموت أحدنا فى الآخر حباً هذا كل غرضه...وهو يقول دائماً ويكرر إن هذا هو دورنا المقدر لنا إلى الأبد ، ويجب ألا نخرج عنه قيد أنملة... وهذا بالطبع قول مجانين... ولا يمكن فى أى حياة زوجية أن يستمر هذا طويلا ، كيف يريد منى هذا المجنون أن أتغنى طول الأبد باسم روميو ، كما كنت أتغنى به قديماً ليلة قلتُ : إن الوردة إذا تغير اسمها لما كفت عن نشر شذاها الحلو وعطرها ... كذلك روميو ، لو غير اسمه لما انفصلت عنه شخصيته الكاملة ولا صفاته الساحرة !... لا أستطيع أن أقول ذلك اليوم عن زوج يضايقنى بملاحظاته السمجة.. إليك مثلا بسيطاً... لقد حدث منذ وقت ليس بالبعيد أن صعدت إلى الآخرة امرأة مولعة بالأناقة قيل إنها ماتت من السكر فى حفلة ساهرة ..

ولقد رأيت فى قدمها حذاء بكعب عال عجيب الطراز ، احتلت حتى حصلت عليه ، ووضعته فى قدمى ... فصاح بى روميو ساخراً :

«مرحى بجولييت، زهرة (فيرونا) النقية، وسليلة آل كابوليت. لقد انقلبت غانية من غانيات باريس المتهتكات ! » ...

فلم أتمالك من الغيظ ، ونزعت « فردة » حذاء رميت بها روميو ... ولكنه انحرف عن مرماها فأصابت صلعة شكسبير !.

— يا له من ضحية ! ...

— مَنْ ؟... روميو ؟...

— لا ... بل ...

— عفواً . . . هذا روميو قد اقترب . . . ولن يتركنى بغير تنغيص ... أنصح لك أن تطلب محادثتى فى وقت آخر ... اسكت ياروميو ... لا إنى لم أتحدث عنك بخير ولا بشر ... إنك سمعت اسمك خطأ ... تقول إنى كاذبة ؟... بل أنت المغرور السخيف... إذ تعتقد أنى لا أجد موضوعاً غيرك أتحدث فيه . . . آه . . . ! لكم أتمنى الخلاص منك ... متى يقولون : « جولييت » فقط دون أن يلصقوك بى . . . جولييت بدون روميو . . . متى ذلك . . . متى ؟... إنك «لصقة» ... لصقة ثقيلة !... لصقة أبدية !...

مع جان دارك

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت « جان دارك » . . .

فسمع صوت يقول :

— أنا جان دارك . . .

— القديسة ؟ . . .

— ما قصدت أن أكون قديسة . . . ولكنى قصدت أن أطرد الإنجليز من أرض وطنى فرنسا . . .

— أنتِ أيضاً ؟ ... ومنذ خمسمائة عام ؟ ... كل إنسان يريد أن يطرد الإنجليز من أرض وطنه ! ... هـــذا الطاعون المنتشر فى الدنيا من قرون . . . متى يجلو عن أراضى الناس ؟!...

— هل أنت فرنسى ؟ ! . . .

— لا يا سيدتى . . .

— أنت إذن محظوظ يا سيدى !...

— لماذا ؟ . . .

— لقد كنت أنا فرنسية . . . وطردت الإنجليز ، فحرقنى الفرنسيون حية ! . . .

— كانت غلطة لا تغتفر ! ... ندم عليها الفرنسيون فيما بعد وحاولوا أن يكفروا عنها بأثواب البطولة والوطنية التى أسبغوها عليك ألم تشاهدى من علياتك ذلك التمثال الرائع الذى نصبوه لك فى أفخم ميادين باريس . . . يمثلك فى دروع الحرب ، منتضية السيف ، ممتطية جوادك المطهم ؟ . . .

— بلى . . . رأيت ذلك وصدقته . . . ولكن ما قولك فى « نابليون » الذى جاءنى هنا فى العالم الآخر يحيينى ويقدم إلىّ نفسه ويقول لى باسماً :

مصيرى مصيرك ... والفرنسيون هم الفرنسيون ! ...

« لقد كان يبكينى هذا الرجل وهو يروى لى قصته ، فى نبرة حزينة تلمع فيها السخرية ، كما يلمع البرق فى السحابة القاتمة . . . روى لى خبر ذلك المجد الذى عقده على جبين وطنه . . . وذلك النصر تلو النصر الذى جعل من فرنسا غولا أفزع الإنجليز وحدّ من شهوتهم للسيطرة، وهدد خطتهم المرسومة للتوسع والانتشار فى كل البقاع ... فأقسموا سراً أن يؤلبوا عليه الثعالب والضباع؛ لأن هذا الأسد الانجليزى أجبن من أن يخرج للصيد بمفرده ، فهو يهجم بهيبته ، ويجعل الآخرين يهجمون بالمخلب والناب ، فإذا وقعت لهم الفريسة ، كان له منها نصيب الأسد، وللأعوان ماينبذه السيد المهاب . . . ونجح الإنجليز آخر الأمر ؛ لأن كثرة الأعوان

تغلب شجاعة الفرد . . . وهزم نابليون . . . وانتظر من أمته أن تضمه على الأقل إلى أحضانها . . . وأن تقول له : لقد أديت واجبك أيها الابن البار . . . وآن لك أن تستريح على صدر أمك فرنسا معززاً مبجلا كما يفعل الانجليز بأبطالهم !... ولكن فرنسا كعادتها قدمته غير معزز ولا مبجل إلى أعدائه الإنجليز ... فألقوا به سجيناً مهانا فى جزيرة مقفرة ! . . . وهو مصير كنت أخشاه على نفسى . . . لقد تبين لى عند محاكمتى أن بعض التراجع منى والتلطف فى الأقوال كان خليقاً أن يبدل الحكم من الحرق إلى السجن . . . ولكنى فضلت الحرق ... لأنه ليس أشق على النفس من أن تعيش طويلا وهى ترى جحود الوطن ! . . .

— وطنك فرنسا اليوم غيره فى الماضى . . . إنه اليوم على الأقل يفهم معنى العدالة ! . . .

— العدالة !... كدت أصدق ذلك.. لولا أن جاءنى منذ شهور وزير فرنسى يدعى «لافال» ... قال لى : إن أهل وطنه الفرنسيين أعدموه ، لأنه كان عدو الإنجليز اللدود ... وكانت محاكمته خزية سوف يلصق بالقضاء الفرنسى إلى قرون ... كان قضاته يعرفون قبل أن يتخذوا مجالسهم من المنصة أنهم سيقتلونه ... وكانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم كلما همّ بالدفاع عن نفسه ... لطالما جأر المتهم بالصياح فى القاعة قائلا لقضاته، أو على الأصح جلاديه : «اصغوا

إلى دفاعى ... ثم اقتلونى إذا شئتم ... فما دمتم تريدون موتى باسم العدل ... فليكن هنالك على الأقل عدل ...» ولكنهم فى الحقيقة كانوا يريدون موته وكفى ... أما العدل فلا شأن لهم به . . . ولقد روى لى فيما روى خبر « المارشال بيتان » أحد أمجاد فرنسا الخالدين ، وابن من أبنائها المخلصين . . . هذا الشيخ الوقور الذى جاوز التسعين ، وآثر مواجهة الكارثة مع أهل بلاده على الهرب والراحة والانزواء فى بلد أجنبى محايد بعيد عن أخطار الحروب . . . كفى أن يغضب الإنجليز على سياسته التى بناها على مصلحة بلاده وحدها دون مصلحة الإنجليز ، ليدفع بهذا القائد العسكرى الهرم أمام محكمة تذل كرامته وتهين سنه وتشوه ماضيه، وتمحو مجده ، وتصدر حكمها المبيت عليه ؛ فتجرده من شارات بطولته ومن رتبه العسكرية وتأمر أن يلقى إلى آخر عمره الواهن الضعيف فى جزيرة جرداء ، رطبة الهواء ، موحشة ، مقبضة ... ليس فيها من أصوات غير صرير الرياح وعصف الأنواء . . . كلا ... لقد صدق نابليون يوم قال لى :

« الفرنسيون هم الفرنسيون ! ... » نعم ... إنهم هم دائما .. قلما يتغيرون ! . . .

— « إنهم ليسوا من فصيلة الأقوياء » ! ...

— ربما كان هذا صحيحاً . . . وإلا فبماذا تفسر تكرار هذه الحوادث على مر التاريخ . . . فرنسا وحدها هى التى تقوم فيها أمثال هذه المحاكمات والمجازر لأبنائها، بوحى من أعدائها المتفوقين، أو الأقوياء . . . فرنسا ومن على شاكلتها فى النوع والفصيلة من أمثال إيطاليا ... التى أعدمت وشوهت ومثلت بابنها ومصلحها « موسولينى » ... تلك أشياء قلما تحدث فى ألمانيا أو فى انجلترا ، بل قد يدهشك كما أدهشنى أن تعلم ما قاله لى « لافال » : إن فرنسا المحتلة بالألمان ، كانت تتخاذل فى كل يوم إلى حد الرغبة فى الاندماج فى الغالب ... هل تتصور أن أكثر من مائة ألف فرنسى طلبوا فى أيام الاحتلال الألمانى القليلة لفرنسا ، أن يتجنسوا بالجنسية الألمانية ؟!...

— يا للعجب !... ولقد احتل الإنجليز أرض مصر ما يقرب من سبعين عاماً ، فلم نسمع بمصري واحد طلب التجنس بالجنسية الإنجليزية !...

— لا يدهشنى ذلك من مصر ولا من الشرق . . . أرضكم كانت مهبط الآلهة والأنبياء والقديسين... أنتم الفصيلة الأولى « لأقوياء النفس » ! ...

— ألم تؤمنى حقاً وأنتِ على الأرض بأنك قديسة ؟...

ـ قلت لك لست أدرى . . . كل ما أذكر أنى كنت فتاة قروية ، لا أقرأ ولا أكتب... وكنت أسمع من والدى ومن أهل القرية أن أعداءنا الإنجليز يحتلون أرض فرنسا .. وبينما أنا أرعى الأغنام وأعود بها ذات مساء سمعت صوت القديسة « كاترينا » تأمرنى باسم الله الذى فى السماء أن أترك القرية وأذهب مع الجيش لأخلص حصن « أورليان » من أيدى الإنجليز ، لأن فى خلاصه خلاص فرنسا . . . وأن أتوج « الدوفين » فى مدينة « رانس » ملكاً على شعبه .. فصدعت بالأمر وقمت إلى العمل... ولم أتركه حتى أتممت ما أمرتنى به السماء ! ...

ـ أحقيقة أنك مت عذراء كما يقول التاريخ ؟ ! . . . وأنك تركت الدنيا ولم تضمى إلى صدرك رجلا ؟ . . .

ـ ما كدت أبلغ سن الحب ، حتى ألقيت بجسمى فى صدر حبيب . . . ضمنى ضمة أحرقتنى . . . ذلك هو « وطنى » ! . . .

ـ ياله من حب قاس فظيع !... أما كنت تفضلين ضمة شاب تلهب قلبك ولا تؤذى جسمك ! ؟ . . .

ـ الآن ربما فضلت ذلك ! . . . ما من عقاب ينزله القدر بامرأة أفظع من أن يميتها « عذراء » . . .

ـ لعل تلك هى تضحيتك الكبرى ! . . .

— نعم تلك هي تضحيتي الكبرى !... لن أغتفر لفرنسا ذلك . . . كل شيء أنساه . . . إلا هذه . . . بعد كل هذه القرون والأزمان ، ما زلت أردد في وحدتي :

« لا يؤلمني يا فرنسا أني مت من أجلك حرقاً . . . ولكن يؤلمني أني مت من أجلك « عذراء » ! . . . وإن كنت أقبل من الكنيسة لقب « القديسة » فمن أجل هذا السبب وحده . . .

— لقـــد اتهموك في المحاكمة بأنك زنديقة ، وأنك محتالة وكاذبة ، وأنك لم تسمعي أقوالا خارقة !؟ . . . هل قابلت في الآخرة القديسة « كاترينا » وتحققت من أنها هي التي حادثتك بتلك الأصوات ؟ . . .

— بالطبع قابلتها وسألتها... ولكنها قالت لي انها لا تذكر... فهي تتحدث في السماء كثيراً . . . ولا يستبعد أن يكون صوتها قد وصل إلى سمعي عفواً ذات مساء ! ... لاشك عندي الآن أن الصوت صوتها ... أما أوامرها الحربية والسياسية فربما كان ذلك من خيالي ... لأن القديسة « كاترينا » لا تعرف شيئاً عن الإنجليز ولا عن « أورليان » ولا عن « الدوفين » ! ...

— أوَ يمكن لأصوات القديسين في الآخرة أن تصل إلى آذاننا عفواً في الأرض ؟ ! ...

— ولم لا ؟ ... أليست أصواتاً ترسل فى الفضاء فيلتقطها « القلب » المستعد لذلك ... لقد حدث هذا لكثيرين بعدى ... وما هاهنا ... موضع الخطورة ، وإنما الخطر فى أن يعلم الناس أنك سمعت هذه الأصوات ، فهم عندئذ لن يسمحوا لك بغير واحد من أمرين :

إما سلكك فى عداد المجانين ...

وإما دفعك إلى الحرق حياً ...

هكذا جرى حكم الناس : من سمع صوت السماء حرمت عليه أصوات الآدميين ...

— وكيف أخاطبك أنا الآن بهذا « التليفون » وأسمع صوتك وصوت غيرك من سكان السماء ؟ ! ...

— وهل يعرف الناس عنك ذلك ؟ ...

— طبعاً ... لأنى أنشره عليهم ...

— ألم يحرقوكَ حياً ؟ ...

— لا ...

— ألم يحسبوك فى المجانين ؟ ...

— ربما حدث هذا منذ زمن طويل دون أن أدرى ...

مع جحا

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت جحا ... فجاء صوت ساخر يعلن :

— أنا جحا ... من ينادينى ؟ ...

— القاهرة ...

— القاهرة ... بلدى المحبوب ؟ ...

— بلدك ؟ ... وكيف يسمونك « جحا الرومى » ؟ ...

— الرومى ؟ ... هى مصيبة ياسيدى من مصائب الدهر التى ابتليت بها ... كلما سرت خطوة نسبونى إلى أمة ... فأنا من الأروام ، والأعجام ، والشوام ... حتى الأتراك ! ... ولكن الله يشهد أنى ما ولدت إلا فى حارات القاهرة بمرحها الحلو ونكاتها الرائعة ... ولكن ماذا تقول فى نكد الدنيا الذى يأبى إلا أنه يرزأنى بثقيل بعد ثقيل لا يحلو له غير التسمى باسمى ... خذ مثلا ذلك التركى « الغشيم » المدعو « نصر الدين خوجه » ... لو رأيت سحنته ، وسمعت لهجته ولكنته لاستعذت بالله ! ... ومع ذلك تجده يشيع عن نفسه أو يجد من يشيعون عنه أنه هو « جحا » ... لقد قابلته هنا فى الآخرة ، وتشاجرنا وتشاتمنا ، وتطاول على

بقوله إنه هو معلم وفيلسوف ... أما أنا فضحك ومهرج ... فصاح به أهل الآخرة يسكتونه بقولهم :

« ليس للفلسفة فى الآخرة معنى ولا مكان ، إنما المكان الأول فيها للمرح » ...

— أوَ تمرحون كثيراً فى الآخرة ؟ ...

— نحن لا نفعل غير ذلك ... والقوم هنا يحبوننى حباً جماً ... لأنهم يتسلون كما كانوا يفعلون فى الدنيا بتداول النوادر يؤلفها بعضهم فى بعض ... ويصدرونها بالعبارة المألوفة : « يحكى عن جحا ... »

— عجباً ! ... أو لست أنت مؤلف نوادرك فى الدنيا ؟ ...

— حاشا لله ياسيدى أن أكون مؤلفاً أو ملفقاً ... ولو أنى ألفت من رأسى هذه النوادر لما حفل بها الناس ... إن هذه النوادر تضحك الناس ، لأنهم هم الذين يصنعونها ...

— ماهذا التواضع منك ؟ ...

— بل إنى أقول الحقيقة ... الدليل على أنها من صنع الناس أنها مثلهم: فيها الجيد والردىء ، والظريف والسخيف ، وهى كلها تعيش وتتداول ، بعجرها وبجرها ... ونفيسها وتافهها ، من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان... ومن بيئة إلى بيئة ... كأنها الناس أنفسهم ... بجمعهم وخليطهم ... وإنهم ليسبحون فى بحر الدهر والأجيال ... رافعين بيمناهم فوق رءوسهم كتاب نوادرهم ! ...

— تريد أن تقنعنى بأن هذه النوادر لم تقع لك ؟ ...

— يقع لى كل هذا ؟ أنا وحدى ؟ .. أهذا ممكن الحدوث ؟ ..

لقد تزوجت فى هذه النوادر مئات المرات ، ومت ودفنت مئات المرات على مختلف الصور والأشكال ، وكنت الرجل الطيب ، والرجل العبيط ، واللص ... والمحتال ... والكريم والبخيل ... والسمين والنحيل ، والموسر ، والفقير ، والفظ ، واللطيف ، والعاشق ... والمنافق ، والخادع ، والمخدوع ، والعاقل ، والمجنون ، وكل ما يوجد فى الخلائق من صفات وعيوب ومناقب وذنوب ...

— وما وضعك إذن فى هذا الأمر ؟ ...

— حائط ياسيدى ... ما أنا إلا حائط قائم فى الطريق العام بين جموع الناس ... كل من جادت نفسه بحكاية رفيعة ، أو وضيعة ... مسحها فى وألصقها بى ...

— أو يرضيك هذا الوضع ؟ ...

— وهل يستطيع الحائط أن يرضى أو يكره ... أو يمسك بتلابيب من يخط على صدره كلمة أو يعلق على سطحه ورقة ؟ ...

— وما الذى جعل منك حائطاً للناس دون خلق الله ؟ ! ..

— إتساع صدرى للنكتة الجيدة يا سيدى ... وحبى للمرح ، وتستترى على أول كاذب جبان لينسب إلىّ ما شاء ... وإن ضحكى وقبولى للنكته الرائقة اضطرانى أن أقبل إلى جانبها مئات من

النكات السخيفة ، دون أن أستطيع البصق فى وجوه قائليها !...

— لو علمت كيف يستخدم اسمك لترويج النوادر ؟ ...

— لا يدهشنى ذلك ... فهنا فى الآخرة ينسبون إلىّ أيضاً كل نادرة يراد ترويجها ! ... لقد أراد زنديق أن يسخر من رضوان ، فسمعته يتحدث فى الناس قائلا :

— « يحكى عن جحا أنه أراد مغافلة رضوان ودخول الجنة خلسة ... فتقدم إليه فى لحظة إغفاءه وقت الظهيرة ، وقال له :

— اسمح لى يا سيد رضوان بأن ألقى نظرة من الباب على صديق لى فى الجنة ... فسمح له وهو على العتبة ، ثم صرفه ... فذهب جحا ثم عاد وقال له :

— نظرة أخرى على صاحب قديم آخر ! ...

فأذن له رضوان ثم صرفه ... فذهب جحا ثم عاد يطلب مثل ماطلب ... وتكرر الأمر حتى ضاق به رضوان ذرعاً ... فصاح به :

« لقد خيلتنى ياهذا ! ... كلما فتحت عينى وجدتك بالباب ، إما أن تدخل ! ... وإما أن تخرج ! ... » فسرعان ما قال جحا : « أدخل ! ... » وبادر بدخول الجنة ! ...

— هذا ياسيدى مثل مما يروّجه الخبثاء والظرفاء هاهنا ...

— تلك نكتة قديمة شائعة هنا فى الدنيا ...

— لم أسمعها وربك إلا هنا فى الآخرة من زمن قريب !...

لعل مشيعها هنا رجل جاءنا أخيراً من أرضكم ! ...

— إذن أنت تسمع أيضاً بأحدث نوادرك فى الأرض بعد موتك ! ؟...

— حقاً ... ولعلى الميت الوحيد الذى لم يحل الموت دون استمراره فى العمل ! ... نوادر جحا تظهر فى كل عام ، ورفاتى فى قبرى قد أكله الدود من مئات الأعوام ! ... ولكن الغريب أن يأتى إلى العالم الآخر قوم صعدوا حديثاً يقصون علىّ بعض هذه النوادر ، فإذا ضحكتُ لطرافتها وظرفها تعجبوا وقالوا لى :

— لكأنك تسمعها لأول مرة ، مامن أحد يريد أن يصدق أنى لست أكثر من زبون ضمن ملايين الزبائن المعجبين بنوادر جحا؟!.

— ما رأيك فى أهل السماء ؟ ...

— رأيى أنهم يمتازون كلهم بخفة الروح ! ... ذلك أن أصحاب الأرواح الثقيلة لا يصعدون إلى أعالى السماء ... فهم كلما جاهدوا ليصعدوا إلينا ، جذبهم ثقل أرواحهم إلى أسفل ، فهم يتركون الأرض ، ولكنهم يظلون معلقين بذيل السماء ! ... وهذه ياسيدى نعمة كبرى من نعم الآخرة ...

— فى الحق إنها لأكبر نعمة أن يتخلص الإنسان من عالم الثقلاء ويعيش بين أصحاب الأرواح الخفيفة ! ...

— إن المرح إذن هو دستوركم ! ...

— بل قل إنه هواؤنا وطعامنا وشرابنا ! ...

— ما أسعدكم ! ...

— نعم ... ما أسعدنا ! ... ولقد زالت هنا فوارق اللغة والجنس ، فنحن جميعاً متفاهمون ، لنا لغة واحدة وإدراك واحد ، وشعور واحد : المرح ! ...

— عندما طلبتك الساعة ، من كان معك من الإخوان ؟ ...

— كان معى شخص جاء أخيراً من الدنيا ، وما كاد يضع قدمه فى عالمنا الآخر حتى جعل يبحث عنى ، فلما اهتدى إلىّ عانقنى ، وقال إنه كان يسمع بى فى الدنيا ، وإنه كان يعجب بالشرق من أجلى ، وقد سألته عن اسمه فقال : « جورنج » .

— « جورنج » الزعيم الألمانى ؟ ...

— لست أدرى ... كل ما أعلم أنه روى لى أنه مات منتحراً ، ساخراً من أعدائه ، وقد قال إنهم حاكموه فى قضية أشبه بقضية « جحا والأوزة » ... فسألته عن هذه النادرة الجديدة ، فقال :

— عجباً ... كيف لا تعرفها أنت؟... يحكى عن جحا أنه ذهب إلى الفرن بأوزة فى صينية يريد إنضاجها لعشائه ... فمر بالفرن قاضى البلد ، وشم رائحة الشواء ، فأمر الفران أن يحمل الصينية إلى منزله فلما حضر جحا وطلب الأوزة المشوية قال له الفران : إن الأوزة

طارت من الصينية... فلم يقنع جحا بالسبب وقاد الفران إلى قاضى البلد وبدئت المحاكمة... وتربع القاضى فى صدر الجلسة ... والتفت إلى الفران يسأله عن الموضوع ... فقال الفران : « هذا الرجل المسمى جحا لا يصدق أن الأوزة طارت من الصينية ! ... فتنحنح القاضى وهز رأسه أسفاً ... ثم تجشأ برائحة الأوزة المهضومة فى معدته ... وقال : يا للكفر ! ... يا للزندقة ! ... ياللإلحاد ! ... ألا تعرف أيها الرجل أن الله قادر على كل شىء وأنه يحي العظام وهى رميم ! ... حكمت المحكمة بعشرة قروش غرامة على المدعو « جحا » ، لإنكار مقدرة الله على الإتيان بالمعجزات ! ...

هكذا روى لى « جورنج » القصة وختمها باسماً بقوله :

— لقد عقدت فى مدينة « نورمبرج » محاكمة كهذه ... كان القاضى فيها « الحلفاء » والفران « إيطاليا » وجحا « جورنج » والأوزة « ألمانيا » ! ...

لن يقف الأمر عند هذا الحد ... سوف ترى فى نوادرك تجديداً فى الأعوام القادمة ... فالزمن قد تغير ... ولم يعد السوقة والعوام صالحين للسخرية والنكات ، بل الساسة ومن يصفونهم بالرجال العظام ! ... غداً تسمع من يقص عليك :

— « يحكى عن جحا أنه كان ذات يوم فى مجلس الأمن ... »

— مهما يكن المكان الذى تذهبون بى إليه ، والموضوع الذى تحشرونى فيه ، والأشخاص الذين تجعلونى بينهم ؛ فإنه يبدو لى أن مغزى نوادرى القديمة قلما يتغير !...

— صدقت فى هذا... ومن أجل هذا كان خلودك فى الأرض وكانت عظمتك ! ...

— عظمتى !... هذه أول مرة أسمع فيها هذا الوصف يسبغ علىّ

— أرجو ألا يسوءك هذا ...

— بالطبع لا يسوءنى هذا... لأنه يضحكنى... ماذا كان يحدث لو أنكم ألبستمونى رداء العظمة — ولو يوما واحداً — قبل أن أموت ؟ ... كنت نظرت إلى نفسى فى المرآة ، وهمست مختالا : جحا العظيم !... ثم خشيت أن أنزل بردائى إلى الحارة لئلا يجرى خلفى الصبية والغلمان !... كلا ... رداء العظمة فوق منكبَىْ جحا فى الدنيا شىء يضحك الناس ... وربما سمج فى نظرهم ... وبَعُد عن قلوبهم ... فالناس لا تحب إلا من تجرد لهم عن رداء التكلف والترفع ، ولم يشعروا بعظمته حاجزاً عالياً يقف بينهم وبينه . الحمد لله أنى مت قبل أن يشوه نفسى ذلك الرداء !...

مع قاسم أمين

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت قاسم أمين ... فسمع صوت يقول :

— أنا قاسم أمين . . . مَنْ يخاطبنى ؟ . . .

— هنا القاهرة . . .

— القاهرة ! ... البلد الذى تمنيت أن أرى نساءه قد خلعن البراقع السوداء وطرحن « اليشامك » البيضاء ؟ ...

— لماذا كنت تريد لهن ذلك ؟ ...

— ألا يزال ذلك محتاجاً إلى إيضاح ؟... أما زلتم تتساءلون عن أسباب دعوتى ، وتتناقشون فى أغراض مذهبى ؟ ... إلى متى أيها الرجال تفرضون على المرأة الحرب ، وتجعلونها حبيسة الجهل قعيدة البيت؟... دعوها حرة كى تتلقى بعض العلم فى المدرسة واتركوها تسفر عن وجهها قليلا ؛ حتى يذهب عنها بعض ذلك الحياء الذى تتعثر فيه...أتوسل إليكم من عالمى الآخر أن تسمحوا للنساء أن يكشفن عن . . .

— عن ماذا ؟ . . .

— عن وجوههن . . .

— عن سيقانهن ؟ . . .

— وجوههن . . . وجوههن . . . ألا تسمعون صوتى جلياً من الآخرة ؟! . . .

— وأنت هل تسمع صوتنا جلياً من الدنيا ؟ . . .

— نعم . . . أسمع . . . تكلم . . .

— لقد كشفن عن سيقانهن . . .

— وجوههن ؟ . . .

— أقول لك « سيقانهن » ... ألا تصدق ؟...

— هذا مستحيل ! . . . أعد علىّ الكلام . . . كشفن عن ماذا ؟ . . .

— عملنا بنصيحتك،وسمحنا لهنّ بالكشف عن وجوههنّ .. فلم يكفهنّ ذلك .. فكشفن عن نحورهنّ وأذرعهنّ ... حتى وصلن إلى سيقانهن ... ولسنا ندرى ما ستكشف عنه الأيام ؟!...

— وهل يظهرن كذلك فى الطرقات ؟ ...

— طبعاً ...أما فى السهرات فالكشف عن الظهور والصدور

مسموح به ... وأما فى «البلاج» والبحار فالكشف عن الأكتاف والأفخاذ مباح . . .

— ماذا أسمع ؟ . . . هل جننتم ؟ . . .

— لا . . . بل نحن فى أتم قوانا العقلية . . . ننفذ دعوتك على خير ما تتمنى ... يضع الزوج ذراعه فى ذراع زوجته نصف العارية فى ثياب السهرة ، ويذهبان إلى السهرات الليلية فى الحفلات «الخيرية» أو «التكريمية» . . . حيث تتلألأ الأجساد ، وتذوب الأكباد على نغم «الجازبند» الذى يعوى عواء الذئب الجائع ، فتنهض الأذرع لتلوى على الخصور ، والشفاه تنحنى لتمس النحور ... وينبغى ألا تتساءل : فى أى الأحضان وقع نصيب زوجتك أو أختك أو بنتك ... فقانون الرقص كقانون القضاء ، لا تمييز فيه ولا ردّ له . . . فإذا كنت أباً ، أو زوجاً ، أو أخاً وأردت أن تناقش امرأة أو عذراء فى ذلك . . . أو خطر لك أن تقف فى وجهها قائلا : «لا خروج إلى هذا الحفل أو ذاك . . . فإنك تسمع هذه العبارة يلقى بها فى وجهك : «متأخر ! . . . أين قاسم أمين يدافع لنا عن حريتنا ؟ ! . . . » .

— أنا ؟ ! . . .

— نعم أنت . . . اسمك على لسانهن دائماً . . . لقد حققنا

أملك نحن الرجال ، وأدخلنا المرأة المدارس الابتدائية والثانوية، ولكنها أبت إلا أن تدخل الجامعة ... فأدخلناها الجامعة ... وتخرجت فيها طبيبة،ومحامية،ومدرسة،وأديبة،وفيلسوفة... الخ... وإلى هنا لا بأس ... ولكن لا شيء يقف بالمرأة عند حد ... إنها تريد أن تكون سياسية ، وأن تدخل البرلمان ، وأن تكون وزيرة ورئيسة وزارة ... لأن كلمة « البيت » فى نظرها أصبحت مرادفة لكلمة « السجن » : يكفى أن تقول لامرأة : « مكانك البيت » حتى ترميك بنظرة حارقة ناسفة وتصيح : « تريد حبسى » ؟ ... فإذا ذكرت لها الأمومة قالت بازدراء : « تريدنى مرضعا » ؟!... لا ترضى بأقل من مناصب الرياسة والقيادة والسيادة ... وسيأتى اليوم الذى يظفرن فيه بما يردن ، ويتركن البيت لنا معشر الرجال فنرضع نحن الأطفال من «البزازة» بألبان «النسلة» والأوفالتين!... والويل لنا إذا اعترضنا ... فالعبارة المألوفة تصفع وجوهنا : « متأخرون!...أين قاسم أمين يرى وقوفكم فى طريق حريتنا»!...

— ماذا تقولون ؟ ... أنا ؟ ...

— أنت الذى أشفق على المرأة من تعثرها فى الحياة ... إنها قد حطمت كل السدود التى تفصلها عن الرجل ... لا يوجد اليوم حمام السيدات على شواطىء البحار ... لأنه لا يصح أن يكون

هناك فرق بين النساء والرجال .. فمن أراد إقامة فاصل بين الجنسين تعرض لنقمتهن... واعتبرنه خادشاً لكرامتهن...إنهن والرجال سواء ... إذا سبح رجل فى بحر ، وجب أن يسبحن معه ، وإذا دخل ملهى لا بد أن يدخلن معه ...وإذا دخَّن كان لهن أن يدخن، وإذا احتسى الخمر كان الخمر لهن حلالا ... وإذا لعب الورق كان القمار بغيرهن سخافة ، والمائدة الخضراء بغيرهن عتمة وسواد ... ما من رذيلة يأتيها الرجل إلا كانت اليوم للمرأة حقاً من حقوقها المكتسبة ! ... فإذا قلت للنساء : مهلا ... مهلا ... هذا لا يصح لامرأة أن تأتيه ! ... صحن فى وجهك :

« كيف يصح ذلك للرجل ولا يصح للمرأة ؟ ... فيم التفرقة أيها الرجال ... ولكنه استبدادكم دائماً ، واستعبادكم لنا ... أين قاسم أمين ينتزع لنا منكم حقنا ، ويذود عن حريتنا ؟ ! ... »

— أنا ؟ ... أنا ؟ ... لاحول ولا قوة إلا بالله ! ...

— أنت ولا شك كنت تبيح للفتاة أن ترى خطيبها مرة فى حضرة أهلها قبل أن يعقد القران ... فلتقر عينك اليوم ... فإن هذه الإباحة قد تعدت الرؤية النظرية إلى ما تسميه الفتاة الآن حقها فى امتحان الخطيب، فهى لا تكتفى بمرآه ...بل لا بد لها من وقت طويل تنفرد به خلاله ، وتخرج معه إلى النزهة والسينما والحفلات

والسهرات ... ليتم لها فحصه الفحص الدقيق فى مختلف مناحيه وجوانبه ونزواته ونوازعه... فإذا بدا لها يوما أنه كان ثقيل الظل فى اختياره رواية سينمائية بطلتها « ريتا هيوارث » التى تمقتها ... فإنها تخرج خاتم الخطبة من أصبعها وتلقى به فى وجهه ... وتفسخ ما بينهما ، لأن أذواقهما غير متفقة ... وتمد إصبعها لخاطب آخر يضع فيها خاتماً جديداً ، وتمثل معه قصة الخطبة ردحا من الزمن... وهلم جرا .. فإذا كنت أباً أو أخا وأردت أن تقول لهذه الفتاة: هذا ليس مشروع تأسيس أسرة ، ولكنه لعب ومغازلة مع الشبان، فى صورة علنية مشروعة أجابتك الفتاة فى الحال :

— « فى أى عصر نعيش ؟... أنحن فى القرون الوسطى... أنحن فى عهد الجوارى والحريم؟... الدنيا حرية... رحم الله قاسم أمين»!...

— كنى ... كنى ... فى أى عصر تعيشون أنتم ؟ ... لا شك أنكم جننتم ... إن ما أسمع عجيب ! ...

— أليس هذا ما كنت تتمناه للمرأة الجديدة ؟ ...

— أنا ؟... أيمكن أن يتصور عقلى ذلك الذى تحكى عنه؟... أحدث كل هذا عندكم فى هذه الفترة الوجيزة ؟ ... كيف أمكن أن تصبح المرأة لديكم على هذه الصورة فى هذا الزمن القليل ... إن لى رغبة فى أن أبصق فى وجوه ...

— النساء ؟ ...

— بل الرجال ... أنتم معشر الرجال القوامين على هؤلاء النساء ... كيف أرخيتم لهن الحبل حتى انطلقن إلى هذا الحد المخيف ، الذى لم يخطر لى على باله ؟ ...

— ماذا نصنع ؟ ... كلما هممنا بجذب الحبل وإظهار الشدة... صرخن فى وجوهنا ..

« رحم الله قاسم أمين ! ... أين قاسم أمين يمنحنا حريتنا ؟ .. لو كان قاسم أمين حياً لآزرنا وعضدنا » ! ...

— أنا أعضدهن على ذلك ... الحمد لله أنى لم أكن حياً ...

— ماذا كان يحدث لو أنك حى ؟ ! ...

— كان يحدث أن يضربننى بنعالهن ! ...

— وإذا رأيت نعالهن اليوم أيضاً لهالك الأمر ، وبلغ منك العجب ! ... فبعضها له كعب دقيق عال كحافر المعزة ... وبعضها له نعل سميك كأنه « دبابه » ... والبعض يكشف عن مؤخر القدم، والبعض يكشف عن مقدمها ... لأن جوارب « النايلون » يجب أن تظهر للعيان ، ويجب أن تعطى الفرصة لتتمزق ، ويدفع فى أمثالها باهظ الأثمان ...

— أو لم يزل إسمى مقرونا بهذه المساخر ؟ ! ...

— بالطبع.. إذا قالوا: «المرأة الجديدة» قالوا: «قاسم أمين»!.

— وما العمل ؟... أما من طريقة لإظهار تنصلى ...

— تنصلك من ماذا ؟. من هذه الحركة النسوية ؟. مستحيل !.

— أرجو منك ! . . . أنت رجل طيب فيما يلوح لى ، وقد تفضلت مخاطبتى وبينت لى ونبهتنى . . .

— لا يا سيدى . . . لا تأمل فى ذلك . . . تنصلك الآن من أصعب الأمور . . .

— افعل ذلك من أجلى . . . من أجل الحقيقة والتاريخ . . . من أجل رجل مسكين استغلوا اسمه فى كل موضع ...

— وماذا تريدنى أن أفعل ؟ . . .

— أعلن إلى الناس - عن لسانى - أنه لا علاقة لى بهذه الحركة .

— وهل تظن أحداً يصدقنى ؟ . . . لو تكلمت باسمك وقلت إنى خاطبتك وتلقيت عنك هذا الإعلان ؛ لأدخلونى تواً مستشفى المجاذيب . . .

— وما الذى تراه لى إذن ؟ . . .

— سلّم أمرك إلى الله !.. فلست أنت أول ولا آخر رجل يلصق اسمه على أشياء هو منها براء... اعتبر نفسك طابع بريد... أيمكن أن يسأل ذلك الطابع عما يلتصق به من رسائل ، قد يكون فيها ما ينذر بالكوارث والدواهى ؟ ! . . .

الآخرة لأهلها

أرادت العصا أن تمضى فى الضغط على الزر، وتطلب من تختار . . . ولـكنها ترددت قليلا . . . والتفتت إلىّ وقالت :

ــ أظن من سلامة الذوق وحسن الأدب ... أن أترك لك حرية الاختيار تبعاً لمشيئتك أنت ، ولو لحظة ... ما قولك فى أن تضغط على الزر، وتطلب من تشاء ؟... ربما كان لك فى الاختيار مآرب تحب أن تحققه أو مقصد ترى أن تسعى إليه . . .

قلت :

ــ حقاً أريد أن أعرف أموراً تهمنى معرفتها من بعض سكان العالم الآخر... أتأذنين لى فى الدنو من الجهاز لأطلب من أريد؟...

قالت العصا :

تفضل ! . . .

فاقتربت فى الحال من الجهاز ، وضغطت على الزر ، وطلبت « طاغور » . . . وانتظرت لحظة مضطرب الأنفاس مرتعش اليد ... وإذا صوت يبدو لأذنى جلياً عميقاً . . .

ــ ماذا تريد منى ؟ . . .

— طاغور ؟ ... الشاعر الهندى ، والقطب الروحانى ؟ ... لقد فارقت دنيانا منذ أعوام قليلة . . . أخبرنى . . . ماذا تصنع عندك الآن فى مقامك الأزلى ؟...

— أو تريد — هكذا بلا ثمن — أن أخبرك بأشياء كلفنى العلم بها أن أموت ... ؟

— كنت فى حياتك تجهد لتعلم غيرك ، فما يضيرك فى مماتك أن تعلم الناس أيضاً ؟ ...

— لكل دار علومها ودروسها ، هل كنت وأنا على الأرض أعلّم الأموات ؟... كيف تريدون منى الآن بعد الموت أن أعلم الأحياء ؟... علوم الدار الأرضية لا يفهمها غير أهلها ... وعلوم الدار الآخرة لا يدركها غير أهلها ... مت أولا فتفهم عنى بعد ذلك الجواب عن سؤالك ! ...

وانصرفت روح طاغور عن الجهاز ، شأن من يضع السماعة وقد انتهى الحديث ... وتركتنى كما كنت قبل ... لم أفز بطائل ... وجعلت أقلب الأمر فى نفسى ، ثم قلت للعصا : مالى ولشئون الأرواح وما يجرى فى العالم الآخر ؟... فلأقصر همى على عالمنا الحاضر ... وأفكر فى مستقبل حياتى المادية ... إنى رجل لا أنجح فى أى عمل مالى ... وكلما وضعت مدخرى القليل فى تجارة كسدت

بإذن الله ، أو بفضل خيبتي الباهرة . لماذا لا أستعين بخبرة محنك في أمور المال مثل المليونير الأمريكي «فورد» ملك السيارات؟... فلنطلب روحه ونسألها العون والمشورة... وضغطت على الزر مرة أخرى وطلبت روح «هنري فورد» فحضر قائلا :

— من يناديني ؟ . . .

أنا... شخص لم تعرفه قط... يلتمس توجيهك ليصبح ثرياً...

— افتح مصنعاً للسيارات ...

— هذا مستحيل . . . إني لا أفهم في هذه المسألة شيئاً . . .

— وأنا لا أفهم خارج هذه المسألة شيئاً . . .

— إني لا أعرف كيف أقود سيارة ، بل دراجة ... وكل ما عندي من رأس مال بضع مئات من الجنيهات ، وأريد أن أصبح بها مليونيراً بفضل نصحك وإرشادك وإلا فما فائدة أرواح العظماء أمثالك ؟ . . .

— لو كانت روحي . . . أنا وأمثالي تستطيع أن تجعل من كل مشترك في هذا الجهاز التليفوني صاحب ملايين ، لما أصبحت للثروة قيمة في أرضكم . . .

وانقطع الصوت... ومضت روح «فورد» لشأنها.. وتركتني حائراً يائساً . . . وقد ضاع أملي في الثراء السريع . . . وطفقت أفكر ملياً في استغلال هذا الجهاز الذي لم أجن منه بعد أي ثمرة...

وخطر لى خاطر فقلت للعصا : « مالى وللعلم والمال ... هنالك الفن ... إنى لم أعالج قرض الشعر ... فلو طلبت روح « المتنبى » وسألته أن ينظم لى قصائد من روائع عبقريته وأذعتها فى الناس .. ألا يكون هذا عملا جليلا ؟!... »

فقالت العصا :

— « جرب ! ... »

فبادرت أضغط على الزر وأطلب روح الشاعر العربى القديم ... فحضر يقول بصوت فخم ضخم :

— أنا المتنبى ! ...

— أهلا وسهلا ... أنا أحد المعجبين بك ... ألتمس منك قصيدة تصور فيها الحرب الأخيرة كما كنت تصور الحرب فى زمانك ! ...

فانطلق صوت المتنبى ينشد :

وتضحى الحصون المشمخرات فى الذرى
وخيلك فى أعناقهن قلائد

عصفن بهم يوم اللقان وسقنهم
بهنزيط حتى ابيض بالسبى آمد

وألحقن بالصفصاف سابور فانهوى
وذاق الردى أهلاهما والجلامد

فقاطعته برفق قائلا له :

— هذا وصفك للحرب منذ ألف عام ونيف . .. ولكن الحرب الأخيرة شيء آخر ... إن الطائرات والدبابات وقاذفات اللهب ، وقذائف الصواريخ ، وقنابل الذرة ، تفعل الأفاعيل، وتحدث أعاجيب لو اطلعت عليها . . .

— قنابل الذرة ؟ . . . ما هذا ؟ . . .

— شيء يطول شرحه... إنها بالاختصار آلة تلقى من طائرة...

— طائرة ؟ . . . وما الطائرة ؟ . . .

— مركبة هوائية تحلق فى الجو ، وبداخلها إنسان . . .

— عجباً ! . . . عجباً ! . . .

— أنت إذن لاتعرف شيئاً غير الذى كان فى عصرك ! . . . ولن تستطيع أن تصف إلا ماشاهدت فى حياتك على الأرض...

— وكيف أعرف ما لم أره ؟ . . .

— شكراً لك إذن ! . . .

ووضعت سماعة ذلك التليفون وأنا ضيق الصدر ، مكروب النفس ، أنظر شزراً إلى ذلك الجهاز . . .

وإذا بالعصا تقول :

— مالك وهذه المطالب المعقدة ؟. .. لك صديق مريض

بالتهاب الرئة ... حبذا لو استشرت فى أمره طبيباً مشهوراً مات منذ سنوات ، فلماذا لا تطلب ذلك الطبيب ؟ ...

فضغطت على الزر ، وطلبت روح ذلك الطبيب لحضر ؛ فقلنا له :

— الموضوع يتعلق بحالة التهاب رئوى ...

— ضعوا على صدر المريض لبخة بذر كتان ...

— ولكنه يعالج الآن فى المستشفى بحقن « البنسلين » ؟ ...

— « البنسلين » ؟ ... ما هذا ؟ ...

— علاج جديد ظهر فى زمن الحرب الأخيرة ، وعولج به « تشرشل » أكثر من مرة فى حالات خطيرة لهذا المرض ! ...

— شىء غريب ؟ ! ... اشرحه لى ...

— أنا لست طبيباً ... وعلى كل حال فنحن لم نطلب حضرتك لنعلمك الطب ، أو نشرح لك أحدث مخترعاته ...

وهنا أبعدت السماعة ... فقد قالت العصا :

— يظهر أن هذه الأرواح أجهل منا بكثير ! ...

فقلت :

— هذا طبيعى ... وكيف تريدين منها أن تلم بتطورات حياتنا وقد انصرفت عنا إلى حياة أخرى ؟ ... إن أقصى علمها

هو ما وقع فى حدود تجاربها الخاصة على هذه الأرض... أما بعد ذلك فلها حياتها الجديدة التى نجهلها نحن كل الجهل... ولا تستطيع هى أن تخبرنا بها ... لأنها لا تملك التعبير عنها بأدوات الآدميين، ولا بإحساساتهم ... ولا تقدر على نقلها إلى مداركنا بوسائل البشر ومشاعرهم ... فهم عالم جديد غير عالمنا ، لا يعرف فيه السرور ولا الحزن، ولا الفرح والترح، ولا السعادة ولا الشقاء ، ولا اللذة ولا الألم ، على النحو الذى نعرفه فى هذه الأرض ... لئن كانت الحياة الإنسانية تتغير مقاييسها وموازينها ، وتنقلب رأساً على عقب على سطح القمر القريب منا ، أفلا تريدينها متغيرة التغيير كله فى العالم الآخر ؟ ...

وأرسلت العصا نظرة إلى الجهاز التليفونى وقالت :

— وما فائدة هذا الجهاز إذن ؟ ! ...

فقلت لها بعد تفكر :

— لست أدرى... ربما كان نافعاً للتسلية كجهاز الراديو...فقد يسرنا أن نشغل فراغنا بطلب روح شخص من أقربائنا ... أو من أبطال التاريخ لنثرثر معه قليلاً فى أشياء لاطائل تحتها ، وما دمنا لا نسأله شططا ، ولا نطلب إليه مستحيلا ، ولا نلتمس عنده علما أكثر من علمه ؛ فإننا لن نصاب بخيبة أمل ! ... ودعينى أثبت لك

ذلك الساعة... سأطلب روح «نابليون» وأرجو منه أن يروى لى حياته الماضية ... وهذا بالطبع أمر لا يمكن أن يجهله ...

وضغطت على الزر فى الحال وطلبت روح الامبراطور ، فحضر وسألته بأدب يليق بجلالته عن حياته الغابرة فقال :

— أو تحسبنى أتذكر تفصيلات كثيرة عن هذه الحياة الآن؟ ..

— أحقاً لا تستطيع جلالتك أن تتذكر ذلك ؟ ...

— وهل تستطيع أنت أن تتذكر أشياء كثيرة واضحة فى حياة طفولتك الأولى ؟ ...

— صحيح ... لكأن ستاراً من الضباب يقف بينى وبين أغلب تفاصيلها ...

— حياتى فى الأرض كذلك... هى حياة طفولة بعيدة ... بعيدة

— لقد كتب المؤرخون عنك مجلدات ضخمة تصف دقائق حياتك ...

— أنصح لك إذن أن تكتفى بها ... منها على كل حال تعرف عنى أكثر مما أعرف أنا الآن ! ...

وهنا أومأت إلىّ العصا بإشارة من يدها تنم عن الضيق كأن أطرح السماعة ، فرضعتها ... فصاحت بى متهكمة :

— أرأيت ؟ ... حتى ولا الثرثرة معهم كثيرة النفع ! ...

وهنا قمت إلى الجهاز فحملته وألقيت به فى خزانة للأمتعة القديمة ... وعدت إلى مكانى . . . فقالت العصا :

— حسناً فعلت ! ... فلندع الموتى فى دنياهم ، والأرواح فى عالمهم ... فالويل لهم إذا كنا سننتزعهم من صفائهم العلوى ؛ لنقحمهم فى مشاغلنا ومسائلنا ، ونشركهم فى جدنا وهزلنا ، ونحملهم همنا وتبعاتنا...والويل لنا إذا كنا سنعتمد عليهم ونستنيم إليهم !... لعنة الله على هذا الاختراع الذى يريد أن يحدث ثغرة فى ذلك السد الذى لا يكسر ، والسور الذى لا يقهر : الموت !... فيخلط بين بحرين مختلفين فى جوهر الماء ومعدن الأحياء ...ويشيع الفوضى بين عالمين خلقا منفصلين ! ... ويجعل أحدهما مسلاة ، والآخر ملهاة ! ... وماذا يبقى لنا بعد ذلك من مصير كنا نحسبه أجل من هذا وأقدس ... ومن حياة أخرى كنا نظنها أرفع من أن تهبط إلى الاهتمام بسخفنا الفانى وعبثنا الزائل ؟ ...

ألا أيها العلماء ...اخترعوا فى شئون الذرة والقوى الحيوية ماشئتم من اختراع ... ولكن بربكم ... اتركوا لنا على الأقل حلمنا الأزلى الجميل ، وصورتنا المثالية الرائعة عن « الآخرة » ! ...

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

